الفصل السابع

العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها

في الوقت الراهن

بالرغم من أن فترة التفكك والانهيار تمتد حتى وقتنا الراهن ، إلا أن التحليل العلمي يتطلب التوقف عند نهاية القرن الثامن عشر ، والبدء في مرحلة جديدة من بداية القرن التاسع عشر وحتى الآن ، والمرحلة الجديدة هي موضع التحليل في هذا الفصل . ويستند هذا التقسيم على عدة معايير منها :

المعيار الأول : أن المرحلة الجديدة تبدأ بفقدان الاستقلالية ، حيث فقدت الأمة استقلالها تماماً ، بالإضافة إلى توقف العطاء والإسهام الحضاري ، وتفترق هذه المرحلة عما قبلها في أن المرحلة الأولى بالرغم من خلوها من العطاء والإسهام الجاد والكثيف إلا أن الأمة ظلت خلالها متمتعة باستقلاليتها السياسية والإدارية والفكرية .

المعيار الثاني : السيطرة الأوربية : كذلك افترقت المرحلة الجديدة التي بدأت من القرن التاسع عشر عما قبلها بأنها اتسمت بوقوع معظم مناطق العالم الإسلامي تحت السيطرة السياسية أو العسكرية لأوربا التي بدأت بحملة نابليون على مصر في عام ١٧٩٨ .

المعيار الثالث : التبعية لأوربا : كذلك اتسمت المرحلة الجديدة بالتبعية السياسية والاقتصادية والعسكرية والفكرية لأوربا ، ولم يعد للذات الحضارية للإسلام وجود إلا في ضمير الأمة كتراث وتاريخ .

وعليه فان المرحلة الجديدة قد اتسمت بتوقف عطاء الأمة الحضاري وفقدانها لذاتها الحضارية وكذا بالسيطرة الأوربية على العالم الإسلامي وتحويله إلى تابع لأوربا .

وكما اعتدنا في الفصول السابقة نعكف في هذا الفصل على تحليل مفهوم العلم ورغبة التعلم وعملية التعليم وموضوعات العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، وذلك من خلال المباحث الخمسة التالية :

المبحث الأول : خصائص الحياة الثقافية والفكرية في الوقت الراهن .

المبحث الثاني : العلم في الوقت الراهن .

المبحث الثالث : التعلم في الوقت الراهن .

المبحث الرابع : التعليم في الوقت الراهن .

المبحث الخامس : العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في الوقت الراهن .

المبحث الأول

خصائص الحياة الثقافية والفكرية في الوقت الراهن

كما سبق وذكرنا نقصد بالوقت الراهن الفترة التي تبدأ من بداية القرن التاسع عشر وحتى أيامنا التي نعيشها في أوائل القرن الحادي والعشرين ، وهذه الفترة اتسمت خلالها الحياة الثقافية والفكرية في المجتمعات الإسلامية بعدة سمات أضيفت إلى السمات التي كانت قد سادت خلال فترة التفكك والانهيار والتي سبقت دراستها في الفصل السابق ، ويمكننا تناول هذه السمات والخصائص الإضافية فيما يلي :

أولاً : اليأس من عودة الازدهار والتواصل الحضاري الإسلامي :

لقد كانت فترة التفكك والانهيار كفيلة بأن تصيب المسلمين بإحباط شديد وخيبة أمل ويأس من إمكانية عودة الازدهار والتواصل للحضارة الإسلامية والثقافة كذلك ، وما من شك في أن طول فترة التفكك والانهيار التي عاشتها الأمة منذ الاجتياح المغولي لدولة الإسلام قد رسخت من ذلك اليأس وعمقته في النفوس وبلورت قناعات مفادها أنه ليس في الإمكان أحسن مما كان وأن الماضي لا يمكن أن يعود مرة أخرى ، كذلك كان لسوء الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية في كافة المجتمعات الإسلامية دورها المهم في هذا الصدد حيث ساهمت تلك الوضعيات المزرية في ترسيخ تلك القناعات وأكدت على صعوبة بل استحالة التحول من تلك الوضعيات إلى وضعيات أخرى مثالية أو تنحو نحو المثالية ، أيضاً كان للتدخلات الأوربية في شئون العالم الإسلامي دورها الذي لا يمكن إغفاله في ترسيخ حالة الإحباط وتكريس وضعية اليأس بسبب ما أثاره الأوربيون لدى أبناء العالم الإسلامي من قناعات تفيد بأن ما يملكه العالم الإسلامي من حضارة أصبح ماض لا يمكن إعادته وأن ذلك الماضي بات متخلفاً بمقاييس ومعايير الحاضر ، وأن ما يملكه من

ثقافة إسلامية لا يمكن أن تساعده على التقدم واللحاق بركب الحضارة الأوربية ، بل إن العكس هو الصحيح إذ أن تلك الثقافة الإسلامية تجذب المسلمين فكراً وسلوكاً إلى الخلف ، فهي سر تخلفهم ! وقد انطلى ذلك على كثير من المسلمين فصدقوه إلا من رحم ربي ، وكان وراء ذلك الانسياق خلف الأفكار الأوربية الهدامة الكثير من العوامل والأسباب التي سوف نأتي عليها تباعاً فيما بعد ، وكان شعور اليأس والإحباط من عودة الازدهار والتواصل قد انتاب كافة العناصر والأعراق التي شملها الإسلام وانضوت تحت لوائه .

لقد تشكل اليأس الذي أصاب أبناء الأمة في شكلين : تمثل الشكل الأول في إعراض المسلمين عن الحضارة والثقافة الإسلامية واعتبار الأولى ماضٍ وتراث والنظر إلى الثانية على أنها أفكار ورؤى مرتبطة بالإسلام كمجموعة من النسك والعبادات ، وتجسد الشكل الثاني في الاستجابة للقيم الغربية الحضارية والثقافية واللهث وراء نماذجها واعتبارها السبيل الوحيد للتقدم والرقي .

ثانياً : انحسار الثقافة الإسلامية أمام الثقافات العنصرية الإقليمية :

ترتب على الخصيصة السابقة نتيجة محورية ارتقت إلى مستوى الخصيصة الجوهرية ألا وهي انحسار الثقافة الإسلامية الخالصة أمام الثقافات العنصرية الإقليمية المحلية ، ولعل أسباب ذلك الانحسار واضحة جلية سبق الحديث عن جانب كبير منها ، وعسى أن يكون في الإعادة إفادة ، فالثقافة الإسلامية الخالصة لم تتطور بالشكل الذي يواكب تطورات وتداعيات الأحداث في العالم الإسلامي ، ومن ثم بدت ضعيفة متواضعة لم يقدر لها احتواء وتطويع كافة تلك التداعيات والتطورات وافتقدت كثيراً من كفاحيتها من أجل تطوير ذاتها ودعم منطقها وترسيخ طروحاتها ، فكان اللجوء إلى الثقافات العنصرية الإقليمية المحلية أمراً ضرورياً بدا على أنه الحل لتلك الإشكالية .

إن الثقافات العنصرية الإقليمية المحلية لم تكن علاقتها بالثقافة الإسلامية علاقة اتساق وتضافر وعناق ، بل كانت في كثير من الأحيان علاقة الرغبة في فرض الذات وتأكيدها وإبرازها من خلال التحدث باسم الإسلام سياسياً ، وفرض السيطرة والنفوذ على مناطق العالم الإسلامي التي كان بصحبتها تلك الثقافات بخصوصيتها التاريخية وذاتيتها الكامنة في مفرداتها وطروحاتها ونماذجها ، برز ذلك منذ التفكك والانهيار ، وكان أكثر وضوحاً في القرنين الأخيرين ، بدا ذلك في الفارسية والتركية والمغولية والهندية والعربية والبربرية وغيرها .

وكان من شأن ذلك أن يزوي الثقافة الإسلامية في ركن بعيد ويبرز الثقافات المحلية العنصرية ويمنحها الفرص لكي تسترجع ماضيها وتستعيد موروثاتها ولكنه ليس بمعزل عن الإسلام الدين الذي تتفاعل من خلاله تلك الثقافات بعيداً عن الثقافة الإسلامية ذات المنطق الخاص ، إنها حقاً علاقة مركبة ومعقدة ودقيقة كانت دوماً في مصلحة الثقافات العنصرية المحلية ، ولم تكن أبداً في مصلحة الثقافة الإسلامية التي بدت مثابرة مكافحة من أجل أن تحتفظ ببعض خصائصها وتحافظ على جزء من وجودها الذي كاد أن يندثر أمام خصوصية الآخر وذاتية العنصر والإقليم .

لقد افتقدت الثقافة الإسلامية خصيصة العمومية والسيادة والشيوع على مستوى العالم الإسلامي مجالها الحيوي وإطار حركتها ونطاق تفاعلاتها وتطوراتها ، وأدى ذلك إلى التأثير في عقل الناس وأفكارهم ، فقد بدأت عملية مخيفة وخطيرة في هذين القرنين الأخيرين وهي إعادة تشكيل عقول الناس وأفكارهم بشكل أعادهم إلى موروثاتهم التي كانت قبل الإسلام ، ومن ثم حلت العقلية العنصرية الإقليمية محل العقلية ذات الخصائص والقواسم المشتركة التي تنبع من الإسلام بوصفه النظام الاجتماعي المتكامل الذي يشمل الحضارة والثقافة معاً ، فتفكير العربي وأفكاره اختلفت عن تفكير الفارسي

وأفكاره وعن تفكير التركي وأفكاره وعن تفكير البربري وأفكاره ، وهذا لا يتنافى مع كونهم يدينون جمعياً بدين واحد هو الإسلام ، فالإسلام هو الدين وليس الثقافة وهو النسك والعبادة وليس الحضارة وهو الشعيرة وليس الحياة والنظام الاجتماعي .

إن ما تقدم من توضيح لعلاقة الثقافة الإسلامية بالثقافات العنصرية المحلية لا ينبغي أن تؤول على أنها صراع صريح بين فرقاء ، ولكنه كان نوعاً من الجدال العميق والخطير في ذات الوقت بين ثقافة ازدهرت وأينعت واحتوت بداخلها كافة الثقافات ذات الطبيعة المحلية العنصرية ثم طوعتها لمصلحتها ثم ضعفت ولم تتمكن من الاحتفاظ بمكانتها والحفاظ على قوتها ، وفقدت أسلوبها البديع وطريقتها المثلى في الحفاظ على الثقافات المختلفة في بوتقتها وصهرها بشكل مستديم ، وبين ثقافات كادت أن تنصهر في بوتقة الإسلام لتصبح جميعها عبارة عن مزيج هو الثقافة الإسلامية ، ثم ما لبثت أن تفلتت من تلك البوتقة وغلب عليها عنصرها وتحول المزيج إلى عناصر عديدة غير منصهرة لا يربطها إلا أنها لا تزال في بوتقة الانصهار .

ثالثاً : ولوج الثقافة الأوربية ومزاحمتها للثقافة الإسلامية والثقافات المحلية والحلول محلها :

إذا كانت الثقافة الإسلامية قد أصيبت إصابات بالغة أقعدتها وجردتها من خصائصها وسماتها ، فإن الثقافات المحلية لم تخرج من هذا الجدال قوية قادرة على فرض ذاتها أو منطقها على واقع العصر ومجريات الأحداث ، وعليه فقد بدا العجز على الثقافة الإسلامية وعلى الثقافات المحلية كذلك ، فقد فقدت الأولى أساليب ووسائل تطوير مفرداتها وطروحاتها ومنطقها بما يتواءم مع المجريات والمستجدات ، أما الثانية فقد وجدت في تحللها من الثقافة الأم ضعفاً شديداً وهزالاً حاداً ، كما أن موروثاتها وماضيها

لم تزودها أو تمدها بالقوة اللازمة للتواؤم مع المستجدات فاستمدت منها القليل وظلت هي مسخاً ليس له معالم .

عند هذه اللحظة كان ثمة من يراقب عن كثب لأوضاع العالم الإسلامي المتداعي ، وكانت الفرصة سانحة لأن تقفز ثقافة أخرى هي الثقافة الأوربية لتعشعش في عقول المسلمين وتشكل عقولهم وأفكارهم .

ولكن هل فُرضت الثقافة الأوربية فرضاً على العالم الإسلامي ؟ أم أنها طُرحت كبديل ليس له نظير ولابد من اللجوء إليه ؟ وهل زيّن الأوربيون ثقافتهم وأفكارهم في عيون المسلمين وروّجوها بطريقتهم المبتكرة ؟ أم أن المسلمين هم الذين سعوا حثيثاً نحو الثقافة الأوربية ليأسهم من إمكانية صحوة وفواق الحضارة والثقافة الإسلامية ، ولظنهم بأنها ربما تكون البديل الملائم لمواصلة العطاء الحضاري والثقافي الإسلامي ، وأن تلك الثقافة المبتدعة هي الكفيلة بتعصير أصول وقواعد الحضارة والثقافة الإسلامية وتطوير أدوات حركتها ، والدفع بهما في سبيل التقدم والرقي ! .

مما لاشك فيه أن مسألة ولوج الثقافة الأوربية بمنطقها الخاص وأدوات حركتها ابتداءً من القرن التاسع عشر إلى العالم الإسلامي مسألة ذات شجون تحمل في طياتها الكثير من الإشكاليات ، فمما لاشك فيه أن القوى الأوربية الصاعدة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر قد دفعت بالثقافة الأوربية دفعاً وجعلت منها أداة ووسيلة غاية في الأهمية للسيطرة الفكرية والعقلية على أبناء العالم الإسلامي ، وكان ذلك دعماً قوياً للسيطرة السياسية والعسكرية التي شرعت تباشرها القوى الأوربية في خروجها الثاني نحو العالم الإسلامي ، وهكذا يكون البعد الثقافي الفكري قد شكل بعداً مهماً من أبعاد الظاهرة الاستعمارية التي استهدفت العالم الإسلامي ضمن العالم غير الأوربي ، وذلك لتحويل كل ما عدا أوربا من بلاد الدنيا إلى تابع لها سياسياً واقتصادياً وثقافياً وفكرياً .

ولعل في ذلك حكمة بالغة إذ أن تلك الأداة كانت أداة ذات أهمية وخصوصية وجهتها القوى الأوربية الراغبة في السيطرة إلى العالم الإسلامي ، وذلك لأن العالم الإسلامي يختلف عن أية بقعة أخرى من بقاع الأرض ، فهو يملك موروثاً ثقافياً وحضارياً لابد من مواجهته والتغلب عليه ، ثم إظهاره على أنه الأدنى والأقل مقدرة على المواجهة ، ثم على إخراج العالم الإسلامي من أزمته الحضارية والثقافية ، ودفعه في ركب التطور والتقدم ، وكان ذلك بمثابة التقدمة المنطقية التي تمهد لتدخل الثقافة الأوربية ومنطقها الذي ظن الجميع أوربيون وحتى مسلمون انهما المنقذ من التخلف والهادي إلى التقدم والرقي !! .

وفي هذا الظرف التاريخي الحاسم والعصيب من تاريخ الإسلام كان المسلمون بين مطرقة الثقافة الأوربية المندفعة بقوة وعنف والمصممة على اجتياح العالم الإسلامي وتحطيم صروحه الثقافية والحضارية وبين سندان الثقافة الإسلامية بوضعها غير المواتي والذي كان التفكك والانهيار قد أخذا منها كل مأخذ وأقعداها عن التمكن من التعبير عن نفسها واثبات وجودها في مواجهة المتدخل العاتي الذي اكتسح في طريقه كل شيء .

والمتأمل لوضعية الثقافة الإسلامية في هذه الظروف العصيبة والوضعية المؤسفة يلحظ أن المسلمين في الفترة التي تبدأ من الاجتياح المغولي وحتى أواخر القرن الثامن عشر قد افتقدوا المنهج وكانت هذه هي أول خطوات التخلف ، وبالرغم من ذلك كان لديهم ما يمكن أن يلتفوا حوله ويرددونه ويمجدونه وهو الموروث الحضاري والثقافي ، أما في الفترة التي تبدأ من القرن التاسع عشر وحتى الآن فقد افتقد المسلمون المنهج واتبعوا منهج الآخر وتحولوا إلى تابعين ، فلم يعد لديهم شيء خاص بهم وتحولوا إلى تبع .

رابعاً : إعجاب أبناء العالم الإسلامي بالثقافة الأوربية والأنماط الحضارية الغربية :

كان إعجاب أبناء العالم الإسلامي ناتجاً عن فراغ فكري وثقافي ومصحوباً بانبهار بما لدى الغير من مكون ثقافي ومنطق فكري فرضا نفسيهما من خلال نزعة استعلائية ونظرة دونية ورغبة جامحة في السيطرة والتسيد ، وقد صدر ذلك الإعجاب والانبهار عن طبقات بعينها أو شرائح بذاتها من أبناء العالم الإسلامي ، فهناك شرائح أو طبقات تأثرت بالثقافة والأفكار والأنماط الحضارية الأوربية تأثر فهم واستيعاب أعقبه إعجاب وانبهار ، وكانت تلك الطبقات أو الشرائح في مواقع متقدمة من الهرم الاجتماعي ، واتسمت بالثراء المادي الذي مكنها من التعايش والاختلاط بالمجتمعات الأوربية ، وهناك شرائح أو طبقات تأثرت بالثقافة والأفكار والأنماط الحضارية الأوربية نتيجة عوامل ومؤثرات دعائية نتج عنها تبلور قناعات مفادها أن طريق الأوربيين ومنهجهم هو طريق التقدم والرقي .

لقد كان أمراً منطقياً أن يقود الإعجاب والانبهار إلى اعتناق ، ولم يكن من الصعب على المسلمين اعتناق المكون الثقافي والفكري للأوربيين وبصفة خاصة في حالة غياب ثقافة إسلامية فعالة ، وعندئذ تمكنت الثقافة الأوربية والأفكار المصاحبة لها أن تتسلل إلى العقل والفكر المسلم وتستقر في أعماقه كإحدى مكوناته ، وبذا يكون العقل المسلم قد تلوث بشوائب وارسابات صاحبته بشكل مستديم .

ومن المفارقات في هذا الصدد أن الثقافة الأوربية التي تسللت إلى العالم الإسلامي وعشعشت في عقول العديد من أبنائه لم تؤثر على الثقافة الإسلامية فقط ولم تحصرها في ركن مظلم ، بل تجاوزتها إلى الثقافات الإقليمية المحلية التي ازدهرت وأينعت منذ بداية فترة التفكك والانهيار ، وأظهرتها بمظهر قميء ، فلم تعد الثقافات العربية والتركية والفارسية والأوردية وغيرها إلا بمثابة نجوم انطفأ بريقها وذهب ضوئها وتحولت إلى كواكب لا تضئ

ولكن تعكس ضوء الآخر ، وبذا تكون الثقافات الإقليمية والمحلية التي تحمست واجتهدت من أجل اجتلاب الثقافة الأوربية كانت هي الضحية الأولى التي فقدت ذاتها وفعاليتها وأصبحت مسخاً مشوهاً ، أمام الثقافة الأوربية التي بدت قوية مسيطرة .

لقد كانت ثمة تآلف وتناسق بين الثقافات المحلية والإقليمية والثقافة الإسلامية ، فقد تمكنت الأخيرة في فترة ازدهار الثقافة والحضارة الإسلامية من استيعاب وتذويب الأولى في بوتقة التسامح ، ومنذ أن ولجت الثقافة الأوربية انفض ذلك التآلف وذهب التناسق واتسعت الهوة بين الطرفين اللذين باتا في ابتئاس ذاتي واغتراب بيني ، وتسيدت الثقافة الأوربية الجميع مفروضة من الدول الأوربية المسيطرة على العالم الإسلامي ومرغوباً فيها من أبنائه الذين أعجبوا بها إلى درجة الانبهار .

وكان من شأن الحياة الثقافية والفكرية بخصائصها المتقدمة التي سادت العالم الإسلامي أن تترك آثارها على مفهوم العلم ومحتواه والرغبة في التعلم وعملية التعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، فكيف كانت تلك الآثار ! في المباحث التالية الإجابة على ذلك السؤال .

المبحث الثاني

العلم في الوقت الراهن

جمعت السيطرة الأوربية على العالم الإسلامي بين السيطرة السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والفكرية ، وتأثر العلم ومحتواه الذهني والمعنوي والمادي بهذه السيطرة والثابت أن آثار تلك السيطرة لم تنته بانتهائها وحصول الدول الإسلامية على استقلالها السياسي ، بل ظل العلم يحمل نفس مضمونه الذي كان مصاحباً لتلك السيطرة ، وظلت الدول الإسلامية تابعة لأوربا فكرياً وثقافياً ، وفيما يلي التفصيل :

أولاً : انقسام العلم إلى علم دنيوي وعلم بالإسلام :

العلم في ذاته وجوهره لا يتغير ولا يتبدل ولكن الذي يتغير من وقت لآخر وربما من مكان لآخر هو علاقات العلم بتطورات وتفاعلات الحياة ، والعلم في بلاد العالم الإسلامي قد طرأت عليه تبدلات وتحولات نتيجة المستجدات والمتغيرات ، وقد أثر ذلك على دور العلم في الحياة ، وقد رسخ ذلك من وضعية التخلف العلمي التي بذرت بذورها وامتدت جذورها إلى بداية فترة التفكك والانهيار التي تحدثنا عنها تفصيلاً في الفصل السابق .

وقد كان العلم من أول مرتكزات الحضارة الإسلامية التي تأثرت تأثراً شديداً بالتفكك والانهيار ، وكذا بالانقطاع الذي طرأ على الحضارة الإسلامية مثله في ذلك مثل التعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، وقد بدت أول تلك التأثرات في انقسام العلم إلى قسمين : قسم انصرف إلى تناول علوم الإسلام ، وقسم آخر تخصص في تناول العلوم الأخرى المرتبطة بكافة شئون الحياة والإنسان .

وهذه المسألة تحتاج إلى تأمل وتدقيق ، فالانقسام الذي تطورت إليه وضعية العلاقة بين قسمي العلم التي أشرنا إليها لم يبد بشكل صارم إلا في الفترة محل التحليل ،

فعلوم الإسلام كان لها ذاتيتها وكذلك العلوم الأخرى ولكن العلاقة بينهما كانت قوية والارتباط كان شديداً ، فالعلوم الدنيوية كانت تنطلق من علوم الإسلام وترسخ الإيمان والفكرة الإسلامية عموماً ، كما أن علوم الإسلام كانت تقدم وتمهد لعلوم دنيوية عديدة ، كان ذلك هو حال العلاقة بين علوم الإسلام والعلوم الدنيوية منذ فجر الإسلام وحتى نهاية الخلافة العباسية ، إلا أن تلك العلاقة بدأت في التآكل والتحلل إلى أن تبددت تماماً في الوقت الراهن وأصبح ثمة استقلال تام بين علوم الإسلام والعلوم الدنيوية ولم يعد بينهما أية صلة على الإطلاق .

ولكن لماذا تعمق ذلك الانقسام ووصل إلى ما هو عليه الآن وأصبحنا بعدد علوم تدرس الإسلام كشعيرة وشريعة ونظام اجتماعي وعلوم أخرى لا علاقة لها بذلك وتدرس عناصر الطبيعة ومفردات الكون وعناصر الوجود ! يكمن وراء ذلك الفصل التعسفي سببان يتصل أولهما بضعف الثقافة الإسلامية وحلول الثقافة الأوربية محلها ، والأخيرة تفصل بشكل جذري بين علوم الأديان وعلوم الطبيعة والحياة ، وقد انتقلت تلك التقليعة من أوربا إلى العالم الإسلامي ، وتلقفها أبناؤه وهم في حالة الانبهار التي أصابتهم بفعل تأثرهم بالثقافة الأوربية . ويتعلق ثاني السببين بالانقطاع الذي تعمق والفجوة التي اتسعت بين أبناء الإسلام وماضيهم حيث خفي عليهم الكثير من عناصر ومقومات حضارتهم ، كما أن ما وصلهم منها وعنها كان في حالة تخلو من الأصالة ويشوبها لغط ولهو أساءا لتلك العناصر وأبرزاها على أنها أحداث وأفعال للقدامى لا يستفاد منها إلا بروايتها لتسلية الأجيال ! .

وكان من شأن ذلك الانقسام بين علوم الحياة وعلوم الإسلام أن يتوغل ليصل إلى رغبة التعلم وطلب العلم وعملية التعليم ، وانقسم طلاب العلم إلى طلاب لعلوم الإسلام وطلاب لعلوم الحياة ، ومن ثم توزعت المؤسسات التعليمية إلى مؤسسات تعلم علوم الحياة وأخرى تلقن علوم الإسلام ، وقليلة هي المؤسسات التي حاولت الالتفاف على الانقسام من خلال

إقامة نوع من الازدواجية بتعليم علوم الإسلام جنباً إلى جنب مع علوم الحياة ، وكان النموذج الأمثل في ذلك هو الأزهر الشريف في مصر .

وما من شك في أن تفاعلات الحياة الاجتماعية وكذا العديد من القوى السياسية الفعالة والطبقات المميزة في المجتمعات الإسلامية كانت تزكى ذلك الانقسام وترسخ من وجوده نتيجة قناعاتها التي تشبعت بها من الثقافة الأوربية ، يضاف إلى ذلك النظم السياسية نفسها التي وقفت بكامل قواها وراء ذلك الانقسام واعتبرته أمراً ضرورياً لإنجاح سياسات وعمليات الإنماء التي شرعت فيها منذ حصولها على الاستقلال من السيطرة الأوربية ! .

وتكمن خطورة هذه المسألة فيما أفضت إليه من عملية مفاضلة لا شعورية كرستها في عقول المسلمين وتفكيرهم الجماعي بين علوم الدنيا التي ظهرت على علوم الإسلام وقد بدت دوماً مقرونة بالتخلف وتعطيل المسلمين عن اللحاق بركب التقدم والتطور .

وتجدر الإشارة إلى ردة الفعل على هذا المسعى ، وقد تناثرت تلك الردة على امتداد العالم الإسلامي وجاءت من القلة من أبناء الأمة الذين استمسكوا بالعروة الوثقى وكانوا يفهمون الإسلام حق الفهم ويعلمون أنه دين العلم ودين التقدم والرقي ، وعكفوا على تعصير أصول الدين وقواعده التي تؤسس النظام الاجتماعي الإسلامي ، واجتهدوا من أجل تطوير أدوات التعامل مع الواقع الاجتماعي بمتغيراته ومستجداته ، ومن ثم ظهرت الأدبيات النادرة التي استهدفت تبيان الاتصال الوثيق الذي لا ينبغي أن ينقطع بين علوم الإسلام وعلوم الحياة حيث لابد أن يقود كل منهما إلى الآخر ، فكانت علوم الإسلام تحض على علم الحياة وفقه حقائقها وظواهرها حتى يمكن التعامل معها كما أراد الخالق سبحانه ، كما أن هدف علوم الحياة خدمة الإنسان ثم تمكينه من التعامل المهذب مع عناصر الكون وترسيخ ايمانه باكتشاف آلاء الله وعجائب قدرته في خلقه ، ولكن تلك المحاولات لم تجد

الاستجابة اللازمة من أبناء الأمة وظلت بمثابة شاهد على أن تلك الأمة ستظل تحمل في ثناياها الخير لأن الله جعلها كذلك خير أمة خرجت للناس .

ثانياً : الاهتمام بالعلم الدنيوي على حساب العلم بالإسلام :

لم يكتف المسلمون بالفصل التعسفي بين العلم الدنيوي والعلم بالإسلام بل تطور ذلك الفصل ليعلى من شأن العلم الدنيوي على العلم بالإسلام أو على الأقل ليعرف اهتمام المسلمين بالعلم الدنيوي على حساب العلم بالإسلام ، وقد بدأت هذه الوضعية تنتشر في العالم الإسلامي منذ السيطرة الأوربية التي غشيت معظمه منذ مطلع القرن التاسع عشر ثم عمته بعد ذلك ، والمفارقة الجديرة بالذكر في هذا الصدد أن مسألة الاهتمام بالعلم الدنيوي على حساب العلم بالإسلام قد ترسخت وتوطدت ووصلت إلى حد القناعة عقب حصول دول العالم الإسلامي على استقلالها من نير السيطرة الأوربية ، وقامت النظم السياسية التي تشكلت عقب ذلك الاستقلال بدور رائد وحيوي في إقرار هذه القناعة لدى المجتمعات الإسلامية ، وكذلك عملت معها جنباً إلى جنب الطبقات العليا ذات الثقافة الأوربية سواء كانت على المذهب الفردي أو على المذهب الشمولي .

وكان ثمة أسباب عديدة وقفت وراء هذه الوضعية لعل أولها يكمن في أن العلم بالإسلام قد انتقل إلى هذه العصور المعاصرة دون تعصير لقواعده وأصوله ودون تطوير لأدوات حركته حتى يقدّر له مواءمة المتغيرات والمستجدات التي تفرضها حركة الحياة الإنسانية .[1]

يرتبط بما تقدم ويتممه سبب ثانٍ وهو أن المسلمين قد اعتبروا العلم بالإسلام لا يتعدى فقه الشعائر والنسك وتبيان الحدود والأحكام التي تم تعطيل جلّها في المجتمع الإسلامي ، وعندئذ أنزوي العلم بالإسلام في ركن مظلم على أنه أمور تعبدية شعائرية بحتة لا صلة لها

---

[1] لتفصيل المقصود بتعصير القواعد والأصول وتطوير أدوات الحركة يمكن الرجوع إلى المجلد الأول : السياسة والحكم في الإسلام بجزئيه الأول والثاني .

بحركة المجتمع وتفاعلاته وشاعت مقولة خبيثة راجت لدى العامة والمرجفين مفـادها أن " لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين " وكأن ذلك حكم على الإسـلام بأن يظل حبـيس الشعيرة التعبدية .

كذلك برز سبب ثالث وثيق الصلة بما تقدم وهو أنه لم يعد ثمة مجال للحديث عن الإسـلام كنظام اجتماعي ، وهذا السبب ذاته وقف وراءه ثلاثـة عوامـل دعمتـه وقـوت مـن وجـوده الأول هو العداء الشديد الـذي أظهرتـه الـنظم الـسياسية للـدول الإسـلامية المـستقلة للـدين وللإسلام كنظام اجتماعي ، حيث أنها قد اسـتجلبت أيـديولوجيات جعلـت منهـا أسـس الأنظمة الاجتماعية ، يضاف إلى ما تقدم العامل الثاني الذي تبلور في أن علماء الإسـلام لم يقدّر لهم لأسباب عديدة ذكرناها سلفاً أن يـستنبطوا الطروحـات والـرؤى الإسـلامية الـتي تجعل من الإسـلام نظاماً اجتماعياً كما كان الحال في دولة المدينة ودولة الخلفـاء الراشـدين ، والعامـل الثالـث هـو أن المجتمعـات الإسـلامية بكافـة فئاتهـا وطبقاتهـا قـد اقتنعـت بأيديولوجيات نظمها السياسية التي فرضت عليها فرضاً وروجهـا وزينهـا البطانـات الـتي التفت حول النظم السياسية واستفادت من التزلف لرموزها .

أما السبب الرابع وراء وضعية الاهتمام بالعلم الـدنيوي علـى حـساب العلـم بالإسـلام فقـد تمثل في سيادة اعتقاد كان بمثابة الحصيلة لكـل مـا تقـدم مفـاده أن العلـوم الدنيويـة هـي السبيل إلى تقدم المجتمعات الإسلامية ورقيهـا وأن العلـم بالإسـلام هـو سـبب تـأخر تلـك المجتمعات ، وقد تناس مروجو هذا المعتقد ومعتنقوه أن الإسـلام هو دين العلـم وأنـه يعلـى من شأن العلم الدنيوي ولا يحط من قدره .

ثالثاً : انتفاء المرجعيات الشرعية للعلوم الدنيوية :

في العصور الإسلامية الزاهرة كانت العلوم الدنيوية تمر دوماً عبر المرجعيات الشرعية الإسلامية المتمثلة في القرآن والسنة ، فكانت لتلك العلوم بمثابة المنطلقات التي تنطلق منها وتجد فيها أسسها وقواعدها وأصولها والدافع إليها والحث عليها ، كما كانت تجد فيها كذلك القيم التي دأبت العلوم الدنيوية الإسلامية على التحلي بها والدعوة إليها مهما كانت تخصصاتها وتوجهاتها ، وكانت أيضاً المرجعيات الإسلامية للعلوم الدنيوية بمثابة السياج الواقي والحصن الباقي الذي يعصمها من الذلل ويجنبها الانحراف والخلل ويثبتها على طريق الصواب والفلاح ، وأخيراً حددت المرجعيات الإسلامية للعلوم الدنيوية الهدف والغاية في الارتقاء بالحياة الإنسانية وإيصالها إلى الحياة الطيبة التي تيسر للإنسان عبادة الله الواحد الأحد وتحدث التناغم والتآلف مع مفردات الكون وموجودات الحياة التي تسبح لله .

في الفترة موضع الدراسة لم تعد المرجعيات الإسلامية تمثل للعلوم الدنيوية نفس المعاني والمضامين السابقة حيث تم الفصل – كما سبق الإيضاح — بين العلم بالإسلام وعلوم الدنيا ، فباتت المرجعيات هي الأفكار البشرية التي يحدوها العقل بشطحاته وأهوائه والأيديولوجيات الإنسانية التي صاغها الإنسان وفق مشاربه وتوجهاته ، وأمست القيم من صنع الإنسان وتأليفه ، فما يراه قيمة يقره على أنه كذلك ، ولم يعد ثمة محاذير أو ضوابط أمام العلم الدنيوي فتحول إلى مارد جبار خرج من قمقمه ليعث في الأرض الفساد ولم يعد العلم في خدمة الإنسان فقط بل أصبح من أجل إفنائه وتدميره ، وعليه فقد اتضحت الصورة وانجلت الرؤية بين علوم المسلمين في عصور حضارتهم الزاهرة ، وعلوم أوربا التي استعارها المسلمون في عصور تبعيتهم وتخلفهم .

رابعاً : أوربا مصدر العلم في العالم الإسلامي :

لقد أصبح العلم دخيلاً على المجتمعات الإسلامية ، فقد تحولت أوربا من تابع للمسلمين إلى متبوع يتبعه المسلمون فيستجلبون منه علومهم وثقافتهم ومعارفهم ، وبالرغم من أن للعلم خصائصه العالمية الإنسانية الموضوعية إلا أنه يتأثر بالبيئة التي يخرج منها ثم يعود ليؤثر فيها مرة أخرى ، وقد كان ذلك حال العلوم التي خرجت من أوربا تأثرت بتلك المجتمعات وما يسودها من أفكار ومعتقدات وقيم ثم عادت فأثرت في تلك المجتمعات مرة أخرى وقادت هذه العلاقة الجدلية بين العلم والبيئة إلى قيام حالة من الائتلاف والتآلف بين العلم والبيئة إلى أن أصبح من الصعب الفصل بينهما .

وتأسيساً على ما تقدم فإنه عندما أقدمت المجتمعات الإسلامية على استجلاب علوم أوربا كان عليها أن تنتزع تلك العلوم من بيئاتها انتزاعاً ثم تقوم باستنباتها في بيئاتها ذات القيم والأفكار والمعتقدات المختلفة ، وكانت تلك عملية صعبة ونتائجها مبتسرة ، وقد بدا ذلك جلياً عند تقييم نتائج عملية الاستنبات تلك النتائج التي لم تحقق آمال وطموحات المجتمعات الإسلامية الراغبة في التقدم والرقي على غرار أوربا ! .

إن ما سبق يعني أن المجتمعات الإسلامية لم تستجلب من العلوم إلا ثمارها ونتاجاتها النهائية ولم يكن لديها القاعدة التقنية والأصول والأسس العلمية التي لابد منها لإيجاد علوم أصيلة تفرز نتائج وثماراً تعكس واقع المجتمعات وتنهض بها ، وتتوزع عناصر القاعدة التقنية إلى عناصر مادية وأخرى بشرية وأخيرة قيميه معنوية وسوف نفصل ذلك في الفصل التالي .

لقد أدرك الأوربيون ما لم يفطن له المسلمون وهو أن القطوف التي سيحصل عليها المسلمون من علوم الأوربيين لن تسمن ولن تغني من جوع ، ولكنها ستحول المجتمعات الإسلامية

إلى أذناب تتعلق بأذيال أوربا طمعاً في سراب خداع هو التقدم والرقي ذلك الذي لم تحرز منه كافة المجتمعات الإسلامية شيئاً يمكن أن يذكر حتى الآن .

لقد ذاق الأوربيون مرارة التبعية للعالم الإسلامي واستساغوا في ذات الوقت حلاوة العلوم والمعارف التي جنوها يانعة من حضارة المسلمين ، وهاهم عادوا ليشبعوا لدى أنفسهم نهم التشفي والتوق إلى الريادة والقيادة التي افتقدوها طويلاً ، فاخذوا يتفننون في التهوين من شأن المجتمعات الإسلامية ويمعنون في تحويلها إلى تابع لا يملك من أمر نفسه شيئاً .

لقد وضعت البدايات التاريخية لما تقدم منذ أن ولج نابليون بونابرت بلاد الإسلام في حملته الشهيرة على مصر في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ووصلت الأمور إلى منتهاها بحصول الدول الإسلامية على استقلالها من الدول الأوربية المسيطرة .

خامساً : تأثر العلم بالتوجهات الأيديولوجية :

منذ أن أنجبت الحضارة الغربية الأوربية بمذهبها الفردي نقيضها وهو المذهب الشمولي والعالم قد انقسم إلى معسكرين متفقين في المنبع والأصل والتراث والهدف والغاية ومختلفين في الوسيلة والأداة ، ولم يكن الانقسام على مستوى الساحة الأوربية فقط ولكنه تجاوز تلك الساحة إلى العالم أجمع حيث شايع كل معسكر فصيل من الدول وانتقلت عدوى الانقسام من أوربا إلى كل بقاع الأرض ، ولقد كان حماس المشايعين أشد من المتنافسين أنفسهم ، وتطور ذلك الحماس ليطول كل شيء من سياسة واقتصاد وإدارة واجتماع وثقافة وعلم ، وأصبح المذهب الأيديولوجي بمثابة نظام اجتماعي يقدم كل شيء في الحياة .

لقد تأثر العلم بتلك الوضعية التي آل إليها حال العالم بعد الحرب العالمية الثانية وجاء ذلك التأثر في اتجاهين : الاتجاه الأول حيث تأثرت كثير من العلوم ذات الطبيعة الإنسانية الاجتماعية النظرية بالتوجهات الأيديولوجية والتفسيرات العلمية للظواهر

الاجتماعية والإنسانية المبنية على أسس ومرتكزات وأفكار مستمدة من الأيديولوجية ، فالتفسير الفردي الرأسمالي لتلك الظواهر يختلف حتماً عن التفسير الشمولي الاشتراكي لها ، ولم ينج من ذلك الفصل الخرافي إلا العلوم الطبيعية البحتة ، ولو أن تطبيقاتها قد تأثرت بالتوجهات الأيديولوجية وكان من شأن ذلك الوضع أن ينتقل بحذافيره إلى الأتباع الأيديولوجيين في العالم الإسلامي وسواه من دول العالم .

الاتجاه الثاني حيث أصبح استجلاب العلم في دول العالم الإسلامي مرتبطاً عضوياً بالتبعية الأيديولوجية فلا يجوز لدولة إسلامية تتبع المذهب الاشتراكي أن تستورد العلوم من دولة فردية رأسمالية ، والعكس صحيح إذ لا يجوز لدولة تتبع المذهب الفردي أن تستورد العلوم من دولة شمولية اشتراكية ، ونتج عن ذلك أن تشيع أصحاب كل مذهب أيديولوجي من المسلمين بأفكار ومعتقدات ذلك المذهب وكان لذلك أسوأ الآثار على العقيدة الإسلامية وحضارتها وثقافتها ، فأمست الأولى نسكاً وعبادة وشعيرة ، وباتت الثانية تراثاً وتاريخاً وأصبحت الثالثة أفكاراً مرجعية متخلفة من العيب ترديدها ومن العبث وإضاعة الوقت في تناولها أو البحث فيها ! .

وعندما انتهى ذلك الانقسام الأيديولوجي الذي ساد العالم ردحاً من الزمان وأعقبه حالة من الفوضى الأيديولوجية التي حجبت النتائج ولم تعلق صراحة عن خسران المذهب الشمولي الاشتراكي وظهور المذهب الفردي الرأسمالي إزاء ذلك كان العالم الإسلامي هو الخاسر الفعلي إذ أنه لم يتلق من هذا وذاك في مجال العلوم والمعارف إلا الفتات وبقي متخلفاً تابعاً خسر ذاته الحضارية والثقافية التي عقّبها في محافل التاريخ وخسر كذلك التقدم والرقي الذي كان ولا يزال يحلم بإحرازهما من وراء علوم أوربا ومعارفها .

سادساً : التخلف العلمي في العالم الإسلامي :

انتهينا من العنصر السالف إلى وضعية التخلف العلمي في العالم الإسلامي وعلينا الآن أن نقف ملياً أمام هذه الوضعية لتشخيصها بدقة عسى أن يقدّر لنا ولغيرنا من أبناء هذه الأمة أن يستلهم العلاج للخروج من تلك الوضعية ، ووضعية التخلف التي حاقت بالعلم انتقلت كذلك إلى التعلم أي الرغبة في طلب العلم والى التعليم بكافة عملياته ومفرداته ثم إلى العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، وما سنقدمه من شرح وتحليل لوضعية تخلف العلم ينسحب بالتالي تلقائياً على المسائل الأخرى المذكورة من تعلم وتعليم وعلوم طبيعية .

ويهمنا في البداية أن نعرّف التخلف فيما يتعلق بمسائل العلم والتعلم والتعليم ، والتخلف هنا يعنى افتقاد النهج الخاص الذي يتضمن الإطار الفكري والنموذج العملي اللذين يتناولان الجانبين المادي والروحي في الإنسان فيرتقيان بهما نحو الكفاية والكمال ، وهذا التعريف للتخلف يمكننا تحليله إلى عناصره بما يزيده إيضاحاً من خلال ما يلي :[1]

❖ افتقاد النهج الخاص :

أول عناصر التعريف المتقدم وفي ذات الوقت أول سمات التخلف واهم مفرداته هو افتقاد النهج الخاص ، والنهج الخاص هو الطريق الذي يبرز الذاتية والخصوصية والتفرد ، ذاتية المضمون وخصوصية المحتوى وتفرد الدلالات والمقاصد ، وكل ذلك يعنى الهوية التي سينبعث منها كل تعبير عن طريقة الحياة وكل رؤية لتطوراتها وكل تصور عن أهدافها ومقاصدها .

---

[1] . موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة للمؤلف ، المجلد الرابع : الذات الحضارية للإسلام (الحضارة الإسلامية) الجزء الخامس : العمران والمدنية ، الفصل الثامن : مرتكزات المدنية ومستقبل الحضارة الإسلامية .

وبقليل من التأمل لا يمكن الاهتداء إلى دول سارت في طريق الرقي وفق مفهومها إلا وتمتلك ذلك النهج الخاص ، وبالمقابل يصعب التوصل إلى دول تخلفت عن الرقي والنهوض إلا وهي تفتقد ذلك النهج الخاص بالمعنى الذي أوضحناه ، معنى ما تقدم أن التخلف قرين اللانهج ، وأن من قطعوا شوطاً في طريق الرقي والتقدم هم الذين يملكون نهجاً خاصاً بهم يعبر عن أرادتهم ورغبتهم في نقل حياتهم من طور إلى آخر ، إذن فالتخلف في أول عناصره يعني أن المجتمع لا يملك نهجاً خاصاً به ويعتمد في حياته على نهوج مستعارة من الآخرين فهو في هذه الحالة مجتمع تابع ، أو أنه لا يمتلك نهجاً على الإطلاق .

ولقد افتقدنا نحن المسلمين النهج الخاص فيما يتعلق بقضايا العلم والتعلم والتعليم منذ وقت مبكر عندما انهارت الخلافة العباسية في بغداد ثم تحولنا إلى تابعين لأوربا عندما سيطرت علينا سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً وفكرياً وحضارياً .. الخ وها نحن لا نزال على حالنا من التبعية والتخلف .

❖ النهج يتضمن الإطار الفكري والنموذج العملي :

النهج الخاص للمجتمع يتضمن الإطار الفكري الذي يحدد الأصول والمرجعيات وكذلك الطروحات التي تشرح طريقة تسيير الحياة وتصريف شئون الناس في كافة النواحي والمجالات ، ويتضمن كذلك النموذج العملي أي النظام والتنظيم والقواعد والإجراءات والقاعدة التقنية التي تنقل ذلك الإطار الفكري من طوره النظري إلى واقع عملي وممارسة فعلية ، وهذا ما يطلق عليه الأيديولوجية .

❖ الإطار الفكري والنموذج العملي يتناولان في الإنسان المادة والروح :

وفق الطرح والرؤية الإسلامية الإطار الفكري والنموذج العملي يتناولان في الإنسان المادة والروح معاً ، إلا أنه في الطروحات والرؤى الأخرى هناك تركيز على الجانب المادي من

حياة الإنسان وكيانه ومن ثم تعرف تلك الطروحات بأنها طروحات ذات طبيعة مادية وتترتب عليها تجارب وحضارات وثقافات ذات طبيعة مادية كذلك .

❖ هدف الإطار الفكري والنموذج العملي الترقي بالمادة والروح نحو كفاية الأولى وكمال الثانية :

أيضاً وفق الطرح الإسلامي يتمثل هدف الإطار الفكري والنموذج العملي في كفاية المادة وكمال الروح ، وكفاية المادة تعني أن تلبى كافة متطلبات الإنسان المادية من مأكل ومسكن وملبس ومركب وخدمات صحية وتعليمية وثقافية وفكرية وترفيهية .. الخ ، أما كمال الروح فيعني زرع القيم وتوخيها في كافة أمور ومسالك الحياة لدى الفرد والمجتمع والنظام .

إن ما تقدم يعني أن المسلمين يفتقدون المرتكزات والمنطلقات الأساسية للعلم من نهج خاص وتراكم معرفي يعكس ويعبر عن التواصل الحضاري بين السلف والخلف وقاعدة تقنية تربط الجهود والمساعي والإسهامات بالواقع العملي وتترجمها إلى وقائع وأحداث وتطورات .

المبحث الثالث

التعلم في الوقت الراهن

ثم ننتقل إلى تحليل عملية أو مسألة أخرى من المسائل موضع التحليل في هذا الجزء وهي المتعلقة بطلب العلم والرغبة في تحصيله ، وقد تأثرت هذه المسألة هي الأخرى بالتطورات والتداعيات التي انتابت الحياة الفكرية والثقافية في العالم الإسلامي ، ويمكننا متابعة هذه المسألة منذ بدايات القرن التاسع عشر وحتى الآن في ملامح ومشاهد معين من خلال ما يلي :

أولاً : التحول في أهداف طلب العلم :

لقد اختلفت أهداف طلب العلم خلال هذه المرحلة عن ما سبقها من مراحل ، وكان وراء ذلك الاختلاف العديد من التداعيات والأسباب ، وقبل أن نخوض في ذلك التحول نود أن نلمح إلى ضرورة التفرقة بين علم الإسلام والعلم الإسلامي ، فعلم الإسلام هو فقه كافة أمور ومسائل العقيدة كما هي في مصادر الشريعة الأساسية من قرآن وسنة ، أما العلم الإسلامي فهو طرح علمي مستنبط من مصادر الشريعة المذكورة في أي شأن من شئون الحياة أو منحى من مناحيها مثل السياسة والحكم في الإسلام أو الإدارة العامة في الإسلام أو الاقتصاد الإسلامي أو الاجتماع الإسلامي .. الخ .

لقد كانت أهداف طلب العلم فيما قبل مرحلة التفكك والانهيار تتمثل في تحصيل المعرفة والعلم للارتقاء بالذات ثم الارتقاء بالمجتمع ثم ترسيخ الإيمان بالله ومن ثم يبدو التلاقي بين أهداف العلم في تلك المرحلة وبين القيم والفضائل الإسلامية ، ثم تحوّل الأمر فيما بعد وإبان فترة التفكك والانهيار وخلال فترة السيطرة الأوربية لتتمثل أهداف طلب العلم في

مآرب أخرى غلبت عليها الذاتية والأنانية مثل طلب الجاه أو الرغبة في الارتزاق وما إلى ذلك .

ثانياً : طبيعة المسلم طالب العلم :

إن ما تقدم ينقلنا إلى تناول طبيعة المسلم طالب العلم في المرحلة موضع التحليل وهي القرنان التاسع عشر والعشرون ، فلقد كان المسلم صدى لظروف الحياة الفكرية والثقافية التي مرت بها المجتمعات الإسلامية خلال الفترة المذكورة ، حيث بدأ يعاني من التشتت الفكري المتمثل في ضعف وانزواء الثقافة الإسلامية والثقافات المحلية أمام الاجتياح العاتي من الثقافة الغربية ، ثم في التنافر الحاصل بين الثقافة الغربية والبيئة الخاصة بالمجتمعات الإسلامية التي لم تتمكن من استيعاب تلك الثقافة أو التكيف معها ، وكان من نتيجة تلك المعاناة صعوبة الحصول على العلم وتلقيه مادياً ومعنوياً ، مما قاد في النهاية إلى التقاعس عن طلب العلوم بشقيها علوم الدنيا والعلم بالإسلام أو على أحسن الظروف الاكتفاء بالقليل غير المكلف ، وقد كانت كلفة العلوم الدنيوية أكثر بكثير من كلفة الحصول على العلوم الإسلامية .

لقد كان الإقبال على علوم الإسلام أكثر بكثير من الإقبال على العلوم الدنيوية ولعل أسباب ذلك عديدة : يكمن أولها — كما ذكرنا — في ارتفاع كلفة طلب العلوم الدنيوية وعدم توفر تلك العلوم داخل العالم الإسلامي إلا في أضيق النطاقات ، كما يكمن ثانيها في سيادة اعتقاد لدى المسلمين يجعل العلوم الإسلامية أكثر أهمية وضرورية من سواها من العلوم وذلك لترسيخ المعتقد وفقه أصول الشرع ، ويكمن ثالثها في ضرورة إعداد وتجهيز الوعاظ والدعاة والمرشدين الذين يعلّمون الناس دينهم ، وإن كانت فرصة استكمال تحصيل العلم بالإسلام إلى المستوى الجامعي تعد فرصة نادرة وليست متاحة إلا للقليل .

إن التشتت الذي أصاب المسلمين وصعوبة مواصلة تحصيل العلم بشقيه الدنيوي والديني ساهما في انتشار الجهل والأمية في المجتمعات الإسلامية وتدنى مستويات التحصيل العلمي سواء الديني أو الدنيوي في الوقت الذي قل اهتمام حكومات الدول الإسلامية بالتعليم ومؤسساته ، يضاف إلى ما تقدم أن المجتمع قد تخلى عن دوره الذي كان له فيما يتعلق بتبني واحتضان مؤسسات التعليم ومساعدة طالب العلم ، لقد تحددت إذن خصائص شخصية المسلم طالب العلم في شخصية مكافحة يعاني من ضيق ذات اليد وانعدام من يمد له يد العون ، فيقنع بما يتيسر له من علوم الإسلام التي لا يطمح في مواصلة الحصول على مستويات أعلى منها إلا كبار القوم ، أما علوم الدنيا فلا يمكن للمسلم أن يفكر فيها لأن طلبها يحتم عليه الانتقال إلى أوربا وهذا أمر محال .

ثالثاً : ارتفاع كلفة طلب العلوم الدنيوية :

بالرغم من أن المرجعيات الإسلامية تحض على تعلم علوم الدنيا بكافة صنوفها وضروبها إلا أنها تظل في حكم فرض الكفاية من حيث التكليف الشرعي ، أي أنه يكفي أن يتعلمها بعض أبناء الأمة لتسقط عن البقية ، ويتولى متعلموها مهمة التنظير والتطبيق في تلك العلوم نيابة عن المجموع ، هذا على عكس العلم بالإسلام الذي يعد من قبيل فرض العين الذي يعنى التكليف الشرعي لكافة أبناء الأمة دون استثناء بمعرفة الإسلام وفقه أصوله وقواعده وأحكامه وكافة مكوناته ، لقد كان طلب علم الإسلام أيسر من طلب علوم الدنيا ويرجع ذلك إلى الأسباب التالية :

❖ **السبب الأول** : توفر المؤسسات التعليمية الاجتماعية والرسمية الخاصة بتعليم علوم الدين الإسلامي والتي تعينت في الكتاتيب والمساجد والمدارس والمعاهد والجامعات التي تدرس علوم الإسلام ، وذلك في مقابل ندرة المؤسسات التعليمية التي تتخصص في تعليم

علوم الدنيا فيمكن لطالب علوم الإسلام أن يتوجه إلى حلق المساجد الشهيرة في مكة أو المدينة المنورة أو الجامع الأموي أو الجامع الأزهر أو غيرها من الجوامع على امتداد العالم الإسلامي وسيجد طالب العلم الكثير من المساعدات الإنسانية والرسمية ، أما طالب علوم الدنيا فعليه أن يتوجه إلى حواضر معينة مثل أستانبول أو القاهرة لتحصيل بعض تلك العلوم أو مبادئها على الأكثر أما احدث مبتكرات تلك العلوم فمن الصعب الحصول عليها في المجتمعات الإسلامية قاطبة ، فقد كانت كافة المجتمعات الإسلامية — كما سبق وأوضحنا — متخلفة في العلوم الدنيوية ، أما علوم الإسلام فبالرغم من أنها كانت ترديداً لما سبق وتخلو من الاجتهاد والعطاء إلا أنها كانت في متناول الجميع وكان العالم الإسلامي قبله المستشرقين من أوربا وغيرها لدراسة علوم الإسلام وحضارته وثقافته .

❖ **السبب الثاني** : أن كلفة عناصر العملية التعليمية بالنسبة لعلوم الإسلام في متناول الكثيرين من أبناء الأمة ، فالمعلم والكتاب والانقطاع لتحصيل العلم كل هذه الأدوات والترتيبات من السهولة بمكان توفيرها والحصول عليها حتى ولو انتقل طالب العلم من موطنه إلى موطن آخر داخل بلدان العالم الإسلامي ، أما فيما يتعلق بأمور علم الدنيا فكان الحال جد مختلف ، فعناصر العملية التعليمية تتحدد في المعلم والكتاب والأداة التعليمية ، فالمعلم نادر وندرة الكتاب لا تقل عن ندرة المعلم وإذا توافر أي منهما أو كلاهما فمن الصعب أن يواكب آخر تطورات تلك العلوم كما هي في بلادها ومنابعها في أوربا ، أما الأداة التعليمية أو الوسيلة فهي أكثر صعوبة في الحصول عليها من الأداتين المتقدمتين فالمعامل والمختبرات بالنسبة للعلوم التطبيقية لا يمكن أن تحقق أدنى مستوى من تلك العلوم مهما كانت متقدمة .

لقد كانت كلفة عناصر العملية التعليمية فيما يتعلق بالعلوم الدنيوية باهظة وغير متوافرة لأبناء العالم الإسلامي ، ولم تهتم الأنظمة السياسية في الدول الإسلامية بتلك العلوم ولم

تعباً بالتالي بتوفير عناصر تعليمها ، إلا فيما ندر من المجتمعات الإسلامية التي توافرت ظروف خاصة دفعتها دفعاً في سبيل تشجيع طلب العلوم الدنيوية في حدود ضيقة ولأهداف سياسية صرفة مثل أستانبول حاضرة الدولة العثمانية ومصر في عهد محمد علي ، فالأولى كانت مضطرة لمجاراة المجتمعات الأوربية وللحفاظ على الريادة التي تستوجبها قيادة العالم الإسلامي والسيطرة على دوله حضارياً وثقافياً ، والثانية كانت تجربة فريدة على مستوى العالم الإسلامي راهنت على تطوير مصر والخروج بها من وضعية التخلف التي انخرط فيها أبناء الأمة ، وقد كان ذلك تحدياً لتركيا صاحبة الخلافة وللدول الأوربية ذاتها .

❖ **السبب الثالث** : بالإضافة إلى ما تقدم ثمة بعدان كان لهما تأثيرهما البالغ في إحداث حالة من العزوف عن طلب العلم الدنيوي وهما البعد الاجتماعي والبعد النفسي ، فلم يكن الإقبال على طلب العلوم الدنيوية بالأمر المستساغ والمقبول اجتماعياً ونفسياً ، إذا أن ذلك يعد من قبيل " التفرنج " والخروج على مألوف العادات ومعهود القيم في المجتمعات الإسلامية ، وكان ذلك يؤثر بليغاً في طالب العلم وينأى بهم عن تلك العلوم التي لا ترتبط إلا ببلاد الكفر والإلحاد بلاد الفرنجة الذين جاءوا إلى الشرق للسيطرة عليه وسرقة موارده ومقدراته والعبث بقيمه ومعتقداته ، وهنا حدث خلط ولبس غريبان ، فالعلوم الدنيوية ارتبطت في أذهان المسلمين بأوربا والأوربيين وانتقل كره وعداء ومقت المسلمين للأوربيين لقاء ما عانوه منهم من صلف وإيزاء إلى العلوم الطبيعية التي ازدهرت لديهم وأينعت في مجتمعاتهم وأصبحت تلك العلوم هي الأخرى مكروهة ومزدراه ولا يقبل عليها المسلمون بسهولة وفضلوا الجهل والتخلف على القبول والتسليم بتعلم علوم الفرنجة أهل الكفر والإلحاد !! .

❖ **السبب الرابع** : إن ما تقدم كان كفيلاً بأن يحول بين المسلم وبين الانتقال إلى أوربا لطلب العلوم الدنيوية ، حيث أصبحت تلك هي الوسيلة الوحيدة للحصول على تلك العلوم من مواطنها الأصلية ، فلم يعد هناك من بد لمن أراد تحصيل علوم الدنيا إلا السفر إلى أوربا ، وبات السفر إلى أوربا عائقاً من الصعب تجاوزه أمام القلة من المسلمين الراغبين في تحصيل علوم الدنيا ونقلها إلى المجتمعات الإسلامية ، والمبادرة الشخصية الذاتية في هذا الخصوص غير واردة إلا لأشخاص معينين ومن طبقات بذاتها — وسوف نتطرق إلى ذلك بعد قليل — وتبقى الجهود التي تبذلها النظم السياسية في بعض الدول الإسلامية هي المنفذ الوحيد من تلك المشكلة المعقدة ، فقد شرعت بعض الدول الإسلامية في وقت مبكر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر في إر سال البعثات التعليمية إلى أوربا وبالذات فرنسا لتحصيل العلوم الطبيعية ونقلها إلى المجتمعات الإسلامية ، وكان ذلك نهج محمد على في مصر والعثمانيين في الباب العالي ولم تكن النتائج مبهرة لأسباب عديدة ليس هنا موضع ذكرها .

رابعاً : التعلم في ظل الاحتلال الأوربي :

ثم ننتقل إلى وضعية جديدة داخل العالم الإسلامي خلال المرحلة محل التحليل والدراسة ، وهذه الوضعية هي انتقال العالم الإسلامي بكامله تقريباً إلى السيطرة المباشرة للأوربيين سياسياً وعسكرياً وثقافياً واقتصادياً ، والتي بدأت منذ أواخر العقد الثالث من القرن التاسع عشر بتحرك فرنسي بريطاني عنيف ودامي في المغرب العربي والشام ومصر والعراق ، أعقبه وربما زامنه تحرك روسي في وسط آسيا ، واختتم بتدخل إيطالي غاشم في ليبيا والصومال وهكذا أطبقت السيطرة الأوربية على العالم الإسلامي .

ولعل أول سمات عملية التعلم وطلب العلم في ظل السيطرة الأوربية على العالم الإسلامي قد تمثلت في تعميق الهوة بين العلم بالإسلام والعلم الدنيوي ، وليس ذلك فقط بل حدث تفضيل علني سافر للعلوم الدنيوية على العلوم الإسلامية عموماً ، وأدخل الأوربيون في روع المسلمين أن سبب تأخر العالم الإسلامي هو تمسكهم بالعلوم الإسلامية وعدم اهتمامهم الكافي بالعلوم الدنيوية التي سوف تنتشلهم من التخلف والجهل والفقر ! ! وهنا تثار عدة تساؤلات منها : لماذا لم يستفد المسلمون في العلوم الدنيوية من التماس مع أوربا أثناء السيطرة الأوربية على العالم الإسلامي ؟ وما هي الطبقات التي قدّر لها الاستفادة من أوربا وكيف حدث ذلك ؟ وكيف استفادت ؟ .

مما لا شك فيه أن التماس الذي حدث بين أوربا والعالم الإسلامي كان تماساً صراعياً قائماً على الصدام بين إراد تين الأولى غازية تنزع إلى السيطرة واستنزاف مقدرات الطرف الآخر وتنظر إليه نظرة احتقار وازدراء ، والثانية محبطة تعاني من فترات طويلة من التفكك والانهيار تفقد ذاتها الحضارية ومنطقها الثقافي ، وتكافح من أجل الإفلات من نير الاستعباد والسيطرة التي تحاول الأولى فرضه عليها بالقوة ، ولم تكن هذه العلاقة الصراعية التصادمية مواتية لا قدام المجتمعات الإسلامية على الاستفادة مما لدى الأوربيين من العلوم الدنيوية .

لقد قرن الأوربيون حملتهم السياسية والعسكرية للسيطرة على بلدان العالم الإسلامي بحملة أخرى أعتى وأشد ، تلك كانت الحملة الفكرية الثقافية حيث أمعن الأوربيون في التقليل من شأن الثقافة الإسلامية والتهوين من أمر الحضارة الإسلامية ، وبالغوا في ذلك إلى درجة استخلاص ما مؤداه أن التمسك بالثقافة الإسلامية هو سبب تخلف العالم الإسلامي ! وذلك عندما تصدوا لتشخيص حالة المجتمعات الإسلامية ووضعيتها المتردية ، وظل الأوربيون يعزفون على ذلك الوتر إلى أن تمكنوا من أن يستميلوا آذان عدد غير قليل من

المسلمين الذين استحسنوا تلك المعزوفة وطربوا لها وكانوا هم أول المستفيدين من السيطرة الأوربية وعقدوا حلفاً مقدساً مع الحضارة والثقافة الأوربية كان بمثابة زواج كاثوليكي ظلت بموجبه تلك الشرائح والطبقات تدين للثقافة والحضارة الأوربية بالطاعة والولاء ، فما هي طبيعية تلك الشرائح والطبقات التي استفادت من علوم أوربا ومعارفها وثقافتها ؟ وكيف حدث ذلك التلاقي بين الطرفين ؟ وكيف استفادت تلك الطبقات ؟ وهل كان لها تأثير يذكر في مجتمعاتها الإسلامية ؟ وما هي طبيعة ذلك التأثير ؟ وماذا كان موقفها عندما حصلت الدول الإسلامية على استقلالها من السيطرة الأوربية ؟ وهل لا يزال لتلك الشرائح والطبقات أثر في مجتمعاتها في وقتنا الراهن ؟ .

في الأغلب الأعم لم يكن ثمة علاقات يمكن أن تذكر بين أية شرائح أو طبقات أو قطاعات من المجتمعات الإسلامية وبين أي من الدول أو المجتمعات الأوربية على كافة المستويات الرسمية أو غير الرسمية (الاجتماعية) بعد خروج الإسلام من أسبانيا ، إلا أنه بعد وصول مقدمات السيطرة الأوربية ممثلة في الكشوف الجغرافية ثم حملة نابليون ثم الحملة الإنجليزية بدأت شرائح بعينها تفتح أعينها على الممتلكات الحضارية والثقافية للدخلاء الأوربيين وكانت النظرة في البداية نظرة توجس وريبة ثم تحولت إلى ما يشبه العلاقات الطبيعية عندما حاول الدخلاء الأوربيون توطيد وجودهم من خلال إقامة علاقات تحت أي مسمى مع بعض الناس من أهالي البلاد الإسلامية وعندما تحول الوجود الأوربي في ديار المسلمين إلى احتلال صريح أخذ عدد المستفيدين من العلاقات مع المحتلين في التزايد وتنوعت تلك العلاقات فشملت العلاقات المادية الاقتصادية والعلاقات السياسية والعلاقات الثقافية الفكرية وانتقلت العلاقات الأخيرة إلى حالة من التأثير والتأثر الفكري والقيمي بين الأوربيين ومجتمعاتهم وبين شرائح وطبقات داخل المجتمعات الإسلامية اتسمت بالثراء المادي والخصوصية في الفكر والثقافة .

وما من شك في أن عدداً كبيراً من أفراد الشرائح والطبقات التي ارتبطت فكرياً وثقافياً بالأوروبيين قد تأثرت ثقافته الإسلامية الركيكة من الأساس ، حيث بدت ضعيفة أمام الأفكار والقيم والمنطق الثقافي الأوربي الذي انبهر به أبناء تلك الشرائح والطبقات ، وبالفعل استفاد هؤلاء من علوم الأوربيين وثقافتهم وأفكارهم ، ولكن ما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن ثمة قلة من هؤلاء ظلت محتفظة بهويتها الثقافية الإسلامية بل ربما تعمقت في بعض الأحيان واقتصرت استفادتهم على تحصيل العلوم الطبيعية في العديد من المجالات مثل الطب أو الهندسة أو الطبيعيات وغيرها .

لقد حدث التلاقي بين الشرائح والطبقات المذكورة وبين الدول الأوربية المسيطرة على العالم الإسلامي وفق منطق " البحث عن المصالح " فقد أيقن كل طرف أن مصالحه لدى الآخر ، فللوهلة الأولى أدرك الأوربيون انهم في حاجة ماسة إلى من يوطد أقدامهم في المجتمعات الإسلامية وأن عدداً غير قليل من كبار القوم ليس لديهم ما يمنع من الالتقاء أو التلاقي حول ما يحقق مصالحهم وقد تكون تلك المصالح مادية وقد تكون معنوية ، وبالمقابل أيقن ذلك العدد غير القليل من كبار القوم في المجتمعات الإسلامية انهم يمكن أن يستفيدوا مادياً وفكرياً وثقافياً من الأوربيين بل وذهبوا إلى أبعد من ذلك عندما توهموا وأوهموا غيرهم بأن الأوربيين إنما جاءوا إلى ديار الإسلام للأخذ بيدها إلى التقدم والرقي ، وهكذا التقت مصالح الطرفين حول استفادة كل منهما من وجود الآخر .

كانت الدول الأوربية على استعداد لأن تكافئ القريبين منها لقاء سكوتهم على الاحتلال ومن ثم تمثلت تلك المكافآت في المنفعة المادية من ثروات البلاد المحتلة ، وفي السفر إلى الدول الأوربية لمعايشة مجتمعاتهم ومعاينة حضارتها وثقافتها ، وكانت الفرصة مواتية أمام الأوربيين لإبهار المسلمين وتكريس نمطهم الحضاري ومنطقهم الثقافي لديهم ، ومن ثم اقتربت الشرائح والطبقات الغنية من الدول الأوربية وسياساتها ومن المجتمعات الأوربية

وقيمها وعاداتها وتقاليدها وثقافاتها فرضيت باحتلال بلادها وغضت الطرف عن استبداد شعوبها وهجرت حضارتها وثقافتها الإسلامية وفضلت عليه الحضارة والثقافة الأوربية .

لقد حصلت هذه الشرائح والطبقات من علم أوربا الكثير في كافة المجالات والتخصصات وبصفة خاصة المجالات ذات الطابع الإنساني الاجتماعي التنظيري ، وكان حظها أوفر في اقترابها من الدول الأوربية حكومات ومجتمعات ، وفي ظروفها المادية المواتية ، وكان من شأن ذلك أن يمكن أفرادها من السفر إلى أوربا لتحصيل العلم الدنيوي الذي اشتهاه الكثير من أبناء العالم الإسلامي ولم تتوفر لهم مقدرات تحصيله .

وظل لهذه الشرائح والفئات تأثيرها الواضح في المجتمعات الإسلامية ، فقد اتسعت الفجوة بينها وبين بقية طبقات المجتمع وفئاته واعتبر تميزها المادي والاجتماعي مكافأة نالها أفرادها لقاء علاقتهم بأوربا سياسياً واجتماعياً وثقافياً وفكرياً ، كما أنها استحوذت على إعجاب عدد غير قليل من ضعاف العقول والنفوس من الطبقات الاجتماعية الأدنى ، الذين قالوا يا ليت لنا مثل ما آوتوه انهم لذوو حظ عظيم ! ، بالإضافة إلى ما تقدم فقد اقترفت تلك الطبقة في حق الثقافة الإسلامية الكثير فقد حطت من قدرها وأظهرت الثقافة الأوربية عليها ، وأوحت لأفراد مجتمعاتها بأن ما هي فيه من وضع مميز مادياً وفكرياً ! واجتماعياً هو بفعل الثقافة الأوربية المتطورة ، وأن تخلف المجتمعات الإسلامية هو بسبب تمسكها بالثقافة الإسلامية وعزوفها عن الأخذ بالثقافة والعلوم الأوربية ، وفي الأخير ظلت الطبقات والشرائح القريبة من أوربا حلقة وصل فعالة بين أوربا والمجتمعات الإسلامية حتى بعد استقلال تلك المجتمعات عن السيطرة الأوربية وسوف نتطرق إلى هذه المسألة بعد قليل .

خامساً : التعلم بعد الاستقلال السياسي عن السيطرة الأوربية :

تطورات عدة دخلت على التعلم وطلب العلم بعد انقشاع السيطرة الأوربية عن دول العالم الإسلامي ، ولم تتطرق تلك التطورات إلى المستوى أو الكيف الذي ظل على ما هو عليه وربما تدنى في بعض المناطق ومعظم التخصصات ، ولكنها انصرفت في معظمها إلى أشكال التعلم وطلب العلم ودور النظم السياسية في ترتيبه وتنظيمه وفي ارتباطه بسياسات وعمليات الإنماء والإحداث ثم في تعلقه بالتوجهات الأيديولوجية وأخيراً في ارتباطه بالكم على حساب الكيف .

ولعل أول ما يمكن أن يسجل في هذا الصدد تشبث الأنظمة الجديدة بالعلوم الدنيوية وفصلها بشكل كامل ورسمي عن العلوم الدينية ، وقد ارتبط بذلك كسبب ونتيجة في ذات الوقت ما تبلور لدى تلك الأنظمة من قناعات مؤداها أن العلوم الدنيوية هي بمثابة مفتاح التقدم والرقي وأنها في مسيس الحاجة إلى تلك العلوم لانتشال المجتمعات الإسلامية من التخلف والجهل ثم الفقر ، وألمحت تلك النظم أيضاً وعن قناعة إلى أن علوم الإسلام لا علاقة لها بأمور الحياة وأنها إنما تنصرف إلى العبادة والنسك ليس إلا ، وواصلت معلنة من طرف خفي أن علوم الإسلام واستمساك المجتمعات الإسلامية بها كانت سبباً في تأخر تلك المجتمعات وجهلها وربما ما حل بها من فقر وضنك !! .

ويبدو أن النظم السياسية في الدول الإسلامية بعد استقلالها عن السيطرة الأوربية كانت على حق — أريد به باطل — عندما رأت أن العلوم الدنيوية هي أداتها الضرورية ووسيلتها الحتمية لصياغة سياسات وقيادة عمليات الإنماء ، ولكن هل كان ذلك مبرراً منطقياً ومقبولاً لفصلها بشكل متعسف عن العلوم الإسلامية ، والجدير بالدراسة والبحث في هذا السياق هو الإشكالية الماثلة في الوقت الراهن بالدول الإسلامية ، ومفاد تلك

الإشكالية أن الدول الإسلامية قد أتاحت لأبنائها الحصول على العلوم الدنيوية فنقلتها من أوربا بل وبعثت أبناءها إلى أوربا للتعلم وتحصيل العلم واستخدمت العلوم بكافة تخصصاتها في صياغة خطط الإنماء وفي تنفيذ تلك الخطط ، وفي النهاية كانت النتائج مخيبة للآمال ، فلم تتقدم المجتمعات الإسلامية على سبل التقدم والرقي ولم تقض على الجهل ولم تودع الفقر ، بل ظلت على حالها من الجهل والتخلف والفقر تابعاً لأوربا في كل أمورها وتخدع نفسها وشعوبها بأكذوبة الاستقلال السياسي ! .

لقد وقعت النظم السياسية الإسلامية بعد الاستقلال فريسة لمسألة ارتباط العلم بالتوجهات الأيديولوجية فمعلوم أن النظم السياسية في العالم الإسلامي بعد حصولها على استقلالها من السيطرة الأوربية قد توزعت بين التوجهيين الأيديولوجيين اللذين أنقسم إليهما العالم فيما بعد الحرب العالمية الثانية ، فكانت هناك النظم السياسية التي تعتنق التوجه الأيديولوجي الفردي الرأسمالي الليبرالي . وهناك النظم السياسية التي تعتنق التوجه الايديولوجي الشمولي الاشتراكي الموجه ، وأصبح العلم على ارتباط وثيق بالتوجه الأيديولوجي الذي يعتنقه النظام السياسي بداية من مسألة الفصل بين علوم الإسلام وعلوم الدنيا وانتهاءً بطرق ووسائل استخدام العلم في تخطيط سياسات الإنماء وتنفيذها ومروراً بالدول التي يُستجلب منها العلم وتُرسل إليها البعثات لتلقي العلم وتحصيله واعتناق الأيديولوجيات والأفكار والقيم والمعتقدات .

لقد خرج العالم الإسلامي من ربقة الاحتلال والخضوع المباشر للسيطرة الأوربية لينزلق إلى مستنقع التبعية والخضوع غير المباشر لأوربا عبر الانصياع القيمي والولاء الفكري والطاعة الثقافية والانبهار الحضاري ولا أمل في الانفكاك من هذه الوضعية على الأجل المنظور ! ، إن تحليل وضعية طلب العلم وتحصيله بعد استقلال الدول الإسلامية عن السيطرة الأوربية يفضي إلى مجموعة حقائق يدركها الجميع لأنها بمثابة واقع قائم ولكن ما لم يُدرك حتى

الآن هو كيفية الخروج من ذلك الواقع ! أول تلك الحقائق هو أن تحصيل العلم قد أتيح لكافة أفراد المجتمع وهذه الفرصة لم تكن متاحة من قبل — كما سبق الإيضاح — كذلك فإن كلفة تحصيل العلم لم تعد غير محتملة بل لم يعد تحصيل العلم مكلفاً على الإطلاق فقد ارتبط في كثير من الأحيان بمخصصات مالية للتشجيع والإعانة وهذه كانت الحقيقة الثانية ، أما ثالث تلك الحقائق فإن ثمار العلم ونتاجاته قد استجلبت إلى المجتمعات الإسلامية دون قواعه وأصوله ليس ذلك فقط بل أصبح من اليسير على أبناء الإسلام الذهاب إلى العلم وتحصيله من قواعده ومنابعه ، ورابع تلك الحقائق أن طلب العلم في الحالتين قد ارتبط عضوياً بالقيم والأفكار والمعتقدات المدسوسة في طياته ، والتي حولت طلبة العلم إلى أتباع وحواريين تشبعوا بالقيم وأشربوا الأفكار واعتنقوا المعتقدات ، وغدوا خير دعاة للمذاهب الأيديولوجية ، وأكثر حماساً لها من أصحابها ، وأحتدم النزاع والصراع بين من كانوا طلبة للعلم من أبناء الإسلام ، وتحولت ديار الإسلام إلى حلبة لصراع أبنائه حول أفكار الآخر ، الذي أخذ يرقب في دهشة وهو يغذي تلك الصراعات ويتمنى ألا تنتهي إلا بفناء أبناء الإسلام ، وهكذا تحول العلم إلى نقمة على طالبيه ، لأنه تخلى عن مرجعياته الأصلية وقيمه الفاضلة وأهدافه السامية وغاياته النبيلة التي اجتمعت في الإسلام .

المبحث الرابع

التعليم في الوقت الراهن

أما العملية الأكثر شمولية فقد تمثلت في التعليم ، حيث عكس التعليم في الفترة محل الدراسة الكثير من القضايا والإشكاليات الفكرية والاجتماعية وحتى السياسية والاقتصادية داخل المجتمعات الإسلامية ، وعليه يكون من المجدي والدقيق معاً أن ندرس التعليم خلال مرحلتين متباينتين المرحلة الأولى : مرحلة السيطرة الأوربية على العالم الإسلامي ، والمرحلة الثانية : مرحلة الاستقلال السياسي عن السيطرة الأوربية ، والتفصيل على الوجه التالي :

أولاً : التعليم خلال مرحلة السيطرة الأوربية على دول العالم الإسلامي:

زحفت السيطرة الأوربية على العالم الإسلامي من خلال مقدمات كانت في معظمها ذات طبيعة فكرية ، وعندما غشيت ديار الإسلام كان التعليم من أول وأهم العمليات التي تأثرت بتلك السيطرة وتمثلت أوجه التأثير فيما يلي :

❖ **التدخل في التعليم من قبل القوى المسيطرة :**

كانت عقول وأفكار أبناء الإسلام هي الشغل الشاغل للدول الأوربية التي انطلقت صوب العالم الإسلامي تريد السيطرة عليه واستنزاف مقدراته ، والتعليم وملحقاته هي أهم الأدوات التي تتحكم في العقول والأفكار ، فكان عبث الأوربيين في التعليم هو وسيلة تشكيل العقول والأفكار الإسلامية وفق رؤيتهم وأهوائهم ، وقد جاء ذلك العبث من خلال التعليم وعن طريق أسلوبين نوضحهما فيما يلي :

- التدخل المباشر : كان التدخل الأوربي سافراً صريحاً في التعليم في الدول الإسلامية منذ أن فرضت سيطرتها على تلك الدول وجاء ذلك التدخل على النحو التالي :

○ التدخل في تحديد ما هية العلم ومضمونه : كرست الدول الأوربية الفصل بين العلوم الدنيوية وعلوم الإسلام وشرعت تعلى من شأن علوم الدنيا وتعتبرها وسيلة التقدم والرقي للمجتمعات الإسلامية وفي المقابل تحط من قدر علوم الإسلام وتعتبرها سبباً مباشراً للتخلف والجهل وبالفعل أفلحت في تقطيع كافة الأواصر بين علوم الإسلام والعلوم الدنيوية .

ولم يقتصر تدخل الدول الأوربية على الفصل بين علوم الإسلام والعلوم الدنيوية بل تجاوز ذلك إلى تحديد طبيعة ومضمون العلوم التي ينبغي أن تصدّر إلى دول المسلمين وقد تم التركيز على العلوم المادية البحتة والتي تزكى الأفكار والقيم المادية وتنأى بطالبيها عن القيم الأخلاقية ، وروجت لتلك العلوم بكافة الوسائل والسبل .

○ التدخل في الوسائل التعليمية : يرتبط بما تقدم تدخل الدول الأوربية في تحديد الوسائل التعليمية التي تتولى مهمة تدريس العلوم المشار إليها أعلاه ، فقد أشرفت بشكل مباشر على المدارس والجامعات وعلى ما تحويه من أدوات تعليمية ومن معلمين يبثون مع العلم القيم والأفكار الغربية وانتشرت عمليات التنصير عبر ظاهرة الاستشراق التي ازدهرت في تلك الآونة ، وسوف نشير إليها بعد قليل .

○ التدخل في تحديد طالبي العلم : كذلك امتد التدخل الأوربي في أمور وشئون التعليم في الدول الإسلامية إلى طالبي العلم والراغبين في تحصيله ، حيث قصروا فرصة تحصيل العلوم الدنيوية بالالتحاق بالجامعات القليلة في العالم الإسلامي أو بالسفر إلى أوربا على الشرائح والطبقات العليا ذات الثراء المادي أو النفوذ والسلطة داخل مجتمعاتها ، واعتبروا التعليم في هذه الحالة نوعاً من المكافأة على مساندة الاحتلال و " عربوناً " للصداقة المرجوة

بين الفئات والطبقات الموعودة وبين المجتمعات الغربية بقيمها وأفكارها ومعتقداتها وحضارتها وثقافتها التي سيعتنقها طلبة العلم من العالم الإسلامي بعد وقت ليس بالطويل .

لقد كانت هذه الطبقات والشرائح من طالبي العلم الدنيوي الذي مصدره الوحيد والأمثل هو أوربا بمثابة المدخل الطبيعي للسيطرة الأوربية فكرياً وثقافياً على المجتمعات الإسلامية ، ومن ثم توطدت عرى الصداقة بين الحكومات الأوربية وبين المتنفذين من تلك الطبقات والشرائح وبعد أن مهدت السبيل لتلك السيطرة أصبحت حلقة وصل لم تنقطع حتى بعد حصول الدول الإسلامية على استقلالها عن السيطرة الأوربية ، وحتى بعد تحول الكثير من النظم السياسية الإسلامية إلى توجهات أيديولوجية معاكسة للفلسفة الغربية ذات السمة الفردية ، وسوف نعكف على توضيح هذه الجزئية بعد قليل .

أما بقية طالبي العلم من أبناء المجتمعات الإسلامية من غير ذوي الحظوة فقد ترك لهم التعليم الديني أي علوم الإسلام عبر وسائل وأدوات بدائية مثل الكتاتيب والمدارس أو المعاهد الأساسية أما الجامعات فكانت كذلك للمتنفذين والمياسير ، أما الراغبون في العلوم الدنيوية من عامة المجتمع فلا يستطيعون ولوج الجامعات النادرة إلا بدعم من المتنفذين أو من سلطات المستعمر .

○ التدخل في توظيف مخرجات العملية التعليمية : شملت مخططات السيطرة الأوربية على أمور التعليم في بلدان العالم الإسلامي التحكم في توزيع وتوظيف مخرجات العملية التعليمية ، وذلك راجع إلى أن خطة إدارة المجتمع وتوزيع العنصر البشري تتم من البداية بالتعاون بين النظام السياسي وسلطة المستعمر ، وعليه فقد كان توزيع مخرجات العملية التعليمية من العنصر البشري يتم وفق هذه الخطة التي يغلب عليها رغبة وإرادة السيطرة الأوربية .

وحسب ما تقدم فقد كان الحاصلون على التعليم الدنيوي داخلياً أو من أوربا يحتكرون المراكز المتقدمة والمناصب العليا في الجهاز الإداري داخل المجتمعات الإسلامية في الوقت الذي انزوى التعليم الديني وقل شأن طالبيه وانحط مستوى الوظائف التي يشغلها خريجوه وانحصرت في أعمال يزدريها الناس وينظرون إليها نظرة سخرية واستهزاء ، وقد شمل ذلك كل مفردات التعليم الديني ابتداءً من الزي والهندام وانتهاءً بطبيعة العمل والأجر ومروراً بنظرات الناس وانطباعاتهم !! ، كل ذلك قد تم عن عمد وكان القصد من ورائه الإساءة إلى الثقافة الإسلامية التي يعكسها التعليم الديني ويمثلها في ذات الوقت وباتت الثقافة الإسلامية في وضع يرثى لها .

– التدخل غير المباشر : إلى جانب التدخل المباشر بالوصف الذي تقدم كان هناك التدخل غير المباشر من قبل سلطات الدول الاستعمارية الأوربية ، وقد اخذ هذا التدخل غير المباشر شكلين نشير إليهما في عجالة :

○ الشكل الديني الذي تشكل في ازدهار الدعوة المسيحية أو ما عرف بحركات التنصير التي توجهت إلى العالم الإسلامي ، وكان هدفها إجراء مفاضلة بين الفكرتين الإسلامية والمسيحية ومآثرها ، ولم يكن المقصد بالضرورة هو نشر المسيحية ولكن زعزعة ثقة المسلمين في دينهم ثم في حضارتهم وثقافتهم وإبرازها جميعاً على أنها الأقل والأدنى .

– الشكل الفكري الذي تجسد في إيناع ما عرف بحركة الاستشراق ، حيث تبع الهجمة الأوربية الثانية (الخروج الأوربي الاستعماري) هجمة فكرية ، حيث وجهت الدول الاستعمارية عقول وأفكار باحثيها ومفكريها وعلمائها إلى العالم الإسلامي لدراسة كافة جوانبه وشئونه الجغرافية والجيوسياسية والأنثروبولوجية والاجتماعية والدينية والحضارية والثقافية والسياسية والاقتصادية .. الخ ، وخرج من جراء ذلك سيل من الدراسات المحشوة بالآراء عن الإسلام وحضارته وثقافته وأنظمته ومجتمعاته ، وكثير تلك الدراسات

كان عن غير فهم وتعمق ، فجاء ضحلاً يخلو من الموضوعية والنزاهة والأمانة العلمية ، وقليلها تم عن تجرد وحيدة فجاء موضوعياً ذا شأن ويعتمد عليه ويعتد به داخل العالم الإسلامي وخارجه .

لقد برزت أهمية تلك الدراسات غثها وسمينها في كونها كانت هي المصدر الوحيد تقريباً لمعرفة العالم الإسلامي بجوانبه المختلفة وبصفة خاصة في وقت ندر وربما انعدم ما يكتب عن الإسلام وحضارته وثقافته ومجتمعه بأقلام أبنائه الذين هم أجدر الناس بالكتابة عنه وأحقهم بذلك ، فأصبحت المعرفة بالإسلام تكتسب من الآخر الذي لم يؤمن به ولم يعتنقه ولم يقر في قلبه أو يسكن جوارحه ، بل تعامل معه كظاهرة توضع على بساط البحث وتتجاذبها الآراء والرؤى !! .

❖ رد فعل الدول الإسلامية :

مما لا شك فيه أن الدول الإسلامية لم تستسلم لتدخل الدول الأوربية في حياتها الفكرية والثقافية وفي نظم تعليمها . ولكن هذه الدول كانت تعاني من التخلف والجهل والفقر وعدم المقدرة على تقديم البدائل التي يمكنها عن طرقها مقاومة ذلك التدخل العنيف من الدول الأوربية ، وتمثلت ردود أفعال الدول الإسلامية إزاء ذلك التدخل في الأتي :

– رد فعل النظم السياسية : كانت النظم السياسية في معظم دول العالم الإسلامي في حالة استنفار ومقاومة وتصدي للاحتلال الأوربي ولتدخله في شئونها جميعاً والفكرية منها بشكل خاص ، ولم تكن وسائل النظم السياسية في مقاومة التدخل الأوربي في شئون التعليم والثقافة فعالة بالشكل الكافي ، لذا لم تتمكن من إيقاف عبث الأوربيين بمقدرات مجتمعاتها الفكرية والثقافية ، وربما أدى انشغال النظم السياسية في مقاومة التدخل والنضال من أجل الحصول على استقلال السياسي إلي التغافل عن التدخل في أمور الفكر

والثقافة والتعليم ، ولم يكن ذلك هو شأن كافة النظم السياسية في العالم الإسلامي ؛ فقد كان ثمة نظم متواطئة مع التدخل الأوربي في الوقت الذي ألقيت تبعات مقاومة الاحتلال على كاهل الشعوب التي خرجت من بين أظهرها قوى التحرر الوطني وأفلحت في نيل مآربها .

– رد فعل المجتمعات : ربما اختلف واقع المجتمعات عن وضعية النظم السياسية فيما يتعلق بمقاومة التدخل الأجنبي ، فربما وجد من النظم السياسية من تواطأ مع القوى المسيطرة ، وربما وجد من تهاون مع تلك القوى ، وربما وجد من هادن تلك القوى وكان أكثر حوادة معها ، أما المجتمعات أو الشعوب الإسلامية فلم تستسلم أبداً لذلك التدخل بالرغم مما كانت تعاني منه من التخلف والجهل والفقر ، ولا يقدح في كفاح تلك الشعوب ونضالها المستميت تخاذل بعض الفئات والشرائح والطبقات التي فرضت عليها مصالحها الأنانية مجاراة قوى الاحتلال وموالاتها ، وهي الفئات والشرائح والطبقات التي انشقت على مجتمعاتها وانتبذت طريقاً خاصاً بها ، فقد تعالت على مجتمعاتها وميزت نفسها بما قدر لها من وضع مادي مميز وثقافة منقولة من أوربا ، وساعدت تلك الفئات والشرائح والطبقات قوى الاحتلال ضد شعوبها ومجتمعاتها ، ولم يكن ذلك هو دأب الفئات والشرائح والطبقات الثرية في كافة المجتمعات الإسلامية ، بل إن ثمة فئات وشرائح وطبقات متميزة مادياً واجتماعياً وثقافياً قادت حركات التحرر والكفاح ضد التدخل الأوربي في مجتمعاتها ، وصفوة القول أن المجتمعات والشعوب الإسلامية في الأغلب الأعم لم تقبل بتدخل قوى السيطرة الأوربية في حياتها الثقافية والفكرية وفي نظمها التعليمية بالرغم من تخلفها وجهلها وعوزها المادي .

❖ وسائل التعليم في ظل السيطرة الأوربية :

تعددت وسائل التعليم في العالم الإسلامي إبان السيطرة الأوربية ، ولكنها كانت جميعاً تعاني من القصور والتخلف ، وتمثلت في الآتي :

– الكتاتيب : كانت الكتاتيب لا تزال تمارس دوراً مهماً في التعليم ، وقد انتشرت في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي ، وبدت أهميتها في الوقت الذي قلت حلق المساجد ، ولم تكن المدارس في متناول الجميع ، أما الجامعات فكانت للخاصة وهي بطبيعتها نادرة ، والكتاب بمثابة مؤسسة تعليمية اجتماعية ابتكرها المجتمع لتستقبل النشء في سن مبكرة ، فتعلمهم مبادئ القراءة والكتابة والحساب إضافة إلى تحفيظ القرآن وهو الهدف الأساسي من وراء ظهور الكتاب ، وهي تمهد لتعليم علوم الإسلام في المدارس النظامية المتخصصة أو في حلق الدرس في المساجد ، والكتاب الذي خرج من المجتمع دون هيمنة رسمية محسوسة من دوائر الدولة الإسلامية أو من القوى الأوربية المسيطرة كان هو الأقل كلفة والأقرب إلى وضعية عامة الناس المتواضعة مادياً بشكل مأساوي .

وكان اهتمام الكتاب ينصب على تحفيظ القرآن الكريم ومحو الأمية بتعليم القراءة والكتابة ، ومن ثم فهو وسيلة التعليم الوحيدة المتاحة أمام النشء من أبناء طبقة الفقراء التي تمثل السواد الأعظم في المجتمعات الإسلامية ، والذي يؤهل هؤلاء الصغار لتلقي علوم الإسلام فيما بعد في حلق الدرس في المساجد الشهيرة مثل : المسجد الحرام بمكة المكرمة ومسجد الرسول الكريم بالمدينة المنورة والجامع الأموي بدمشق والجامع الأزهر بالقاهرة وجامع القيروان بتونس وغيرها .

ولم تتلق الكتاتيب التي انتشرت في هذه الفترة – فترة السيطرة الأوربية – أي دعم من النظم السياسية في العالم الإسلامي ، كما عوملت من قوى السيطرة والاحتلال الأوربي

بتجاهل وعدم اكتراث ، وربما تعرضت للإساءة في بعض الأحيان ، إلا أن ما يمكن استخلاصه هو أن الكتاب كان بمثابة المنجم الذي يزود المساجد بطالبي علوم الإسلام الذين سيصبحون فيما بعد قوة سياسية واجتماعية مؤثرة في الحركة السياسية وحركة الكفاح ضد السيطرة الأوربية ، ومن لم يصل من مرتادي الكتاب إلى رحاب المسجد الجامعة ليحصل على العالمية وهي الشهادة المعروفة والمعتمدة في العالم الإسلامي ، فهو يعتبر من حفظة كتاب الله والعارفين بمبادئ علوم الإسلام وذوي الحظوة والمكانة الاجتماعية المرموقة في القرى والنجوع .

– المدارس : ظهرت المدارس في العالم الإسلامي خلال فترة السيطرة الأوربية لتأخذ مساراً منقوصاً ومشوهاً لشكل المدارس الموجودة في أوربا ، ولتخرج في ذات الوقت على السياق الأصولي للمدارس التي كانت قائمة في العالم الإسلامي قبل ذلك ، فهي لم تحافظ على شكل المدارس التي كانت قائمة في العالم الإسلامي بشكلها الصرف النابع من المجتمع الإسلامي ، ولم تنقل الشكل الموجود فعلاً في أوربا وأريد لها أن تنتقل إلى بلاد الإسلام ، وأصبحت مسخاً مذبذباً لا إلى هذا ولا إلى ذاك ، إلا أنها في نهاية المطاف كانت وسيلة مبتكرة من الوسائل التعليمية في ظل السيطرة الأوربية ، وكانت هذه المدارس قليلة وشبه مخصصة لأبناء المياسير والمتنفذين ، وكانت تنشأ في المدن الكبرى وعواصم الأقاليم ، وكثيرها تخصص في مبادئ العلوم الطبيعية ، وقليلها خصص لعلوم الإسلام ، وبعضها جمع بين النوعين من العلم .

وقد اتبعت تقاسيم تقليدية في تقسيم هذه المدارس لعلها لم تختلف كثيراً عما هو قائم في الوقت الراهن ، وهذه التقاسيم مصدرها أوربا على الأرجح ، ووفق المراحل السنية (العمر) قسمت المدارس إلى :

○ مدارس التعليم الأساسي التي تبدأ من سن السادسة وتستغرق الدراسة فيها ست أو تسع سنوات ، تدرس فيها مبادئ وأساسيات العلوم .

○ مدارس التعليم المتخصص (الفني) أو العام ، والتعليم الفني يعد مرحلة مستقلة تشمل دراسة نظرية وعملية لكافة أنشطة ومجالات الحياة من صناعة وزراعة وحرف أخرى ، وهي أشهر مجالات التفاعلات الاجتماعية ، أما التعليم العام فهو مرحلة وسيطة وتمهيدية للالتحاق بالتعليم الجامعي ، ولم يكن يلتحق بالتعليم العام إلا أبناء كبار القوم وخاصتهم ، وكان التعليم في مدارس القسم الأخير مكلفاً وغير متاح لكافة الناس أو عامتهم ، وكانت المدارس المشار إليها تقع في عواصم الأقاليم في المعتاد ، وكانت وسائط الانتقال متخلفة ولا تتجاوز السكك الحديدية النادرة وظهور الدواب أو العربات التي تجرها .

وقد امتدت يد السيطرة الأجنبية الأوربية إلى هذه المدارس فحددت عددها وأماكنها والمناهج الدراسية بها والمعلمين فيها والأدوات والوسائل التعليمية ومخصصاتها المالية وتوزيع مخرجاتها على أماكن الإنتاج والخدمات المتخلفة .

– الجامعات : عرفت جامعات العلوم الدنيوية في العالم الإسلامي على غرار الجامعات الأوربية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ونشأت أول تلك الجامعات في كل من تركيا ومصر ، وقد جاء ترتيب تلك الجامعات وتنظيمها بجهود أوربية ، وأدارها وأشرف عليها إدارياً وأكاديمياً أوربيون طيلة فترة السيطرة الأوربية ، وكان المقصد الأساسي من وراء إنشاء هذه الجامعات هو نقل الفكر والثقافة الأوربية ونشرها وغرسها في العالم الإسلامي لإحداث نوع من التبعية الفكرية والثقافية ، وبالفعل قامت تلك الجامعات بدور لا ينكر في تحقيق ذلك المقصد ، وكانت تلك الجامعات مقصورة على أبناء طبقة المياسير والمتنفذين المقربين من رموز السيطرة الأوربية ، وكان الالتحاق بها يتم بالاختيار وفق معايير دقيقة لعل أهمها موالاة قوى الاحتلال ، أما كلفة الدراسة بها فكانت باهظة

، إلا أنه مع مرور الوقت أصبح من اليسير نسبياً الالتحاق بها ، فدخلها وتخرج فيها العديد من أبناء الطبقة المتوسطة العليا ، وكانوا دوماً قوة فعالة في حركة الكفاح ضد السيطرة الأوربية وكان التنافر والصدام هما سمتا العلاقة بين أبناء الطبقتين الغنية والوسطى داخل رحاب تلك الجامعات ، حيث يعبر كل فريق عن الثقافة التي انطلق منها وتأثر بها .

ولم تقم تلك الجامعات بدورها كاملاً في إخراج العنصر البشري الذي يمكنه قيادة عمليات الإنماء والإحداث المتواضعة في المجتمعات الإسلامية لأكثر من سبب : أولها أن سياسة التعليم في تلك الجامعات كانت تتبع القوى المسيطرة ، ولم تكن مصممة لمصلحة تلك المجتمعات ، وثانيها أن المجتمعات الإسلامية لم تستفد من العنصر البشري الذي تعده تلك الجامعات حيث أنها كانت مكبلة بسياسات القوى المسيطرة التي أجهضت كافة جهود الإنماء السياسي والاقتصادي .

– الجامعات الإسلامية : يقصد بالجامعات الإسلامية المساجد التي تحولت إلى جامعات لتعليم علوم الإسلام بالأساس ثم أدخلت العلوم الدنيوية ، وكانت أكثر انتشاراً في العالم الإسلامي من الجامعات التي تدرس العلوم الدنيوية ، وقد وجدت تلك الجامعات في مصر وتركيا والمغرب العربي وسوريا وشبه الجزيرة العربية وفي إيران والهند الإسلامية وباكستان وإندونيسيا ، وكانت هذه الجامعات متاحة لقطاع أعرض من أبناء الشعوب الإسلامية ، وكانت كلفتها متواضعة نظراً لمساهمة المجتمع في الإنفاق عليها إضافة إلى الأموال الموقوفة عليها ، وكانت تلك الجامعات بعلمائها وطلابها تمثل قوة سياسية فعالة في الكفاح ضد السيطرة الأوربية ، وظلت الوسيلة الوحيدة المتاحة أمام الشعوب الإسلامية للدفاع عن الثقافة والحضارة الإسلامية ضد طغيان وعتو الثقافة والحضارة الأوربية ، إلا أنها لم توفق في تطوير أدواتها ووسائلها باستمرار للرد الناجع والفعال على الهجمة

الفكرية والثقافية الأوربية ، مما جعلها تبدو عاجزة وتوسم من الأوربيين بالتخلف ، وتفقد الكثير من ثقة أبناء الشعوب الإسلامية .

ثانياً : التعليم في العالم الإسلامي بعد الاستقلال عن السيطرة الأوربية :

بعد أن تملصت الدول الإسلامية من السيطرة الأوربية ، كانت قد بدأت فترة من التحول لدى هذه الدول ، فترة شرعت خلالها في البحث عن ذاتها ومرجعياتها الحضارية والثقافية ، وقد عمت عملية البحث كافة أمور ونواحي الحياة من سياسية واقتصادية وحضارية وثقافية واجتماعية ، ولم تكن عملية التحول بالأمر السهل الذي توقعه الكثيرون من رجال الفكر ورجال الحركة الذين عاصروا بدايات مرحلة التحول ، تلك المرحلة الحاسمة التي مثلت مفترق طرق خطير كان من المحتم على تلك الدول أن تمر به ، وسوف نعمد في هذا الموضع إلى تحليل أوضاع التعليم في العالم الإسلامي خلال مرحلة التحول التي لا يزال يعيشها حتى الآن ، وذلك من خلال ما يلي :

❖ إشكاليات التحول :

تحول المجتمعات الإسلامية بأفكارها ونظمها وتنظيماتها من وضعية الخضوع للسيطرة الأوربية إلى وضعية الاستقلال والاعتماد على الذات خلف إشكاليات عديدة في كافة المجالات ، ولعله من المجدي والضروري معاً التصدي لبعض هذه الإشكاليات ، حتى نتمكن من دراسة وتحليل أوضاع وظروف التعليم في المجتمعات الإسلامية خلال المرحلة الجديدة ، ونتطرق إلى أهم الإشكاليات التي تمت بصلة للتعليم من خلال الآتي :

– إشكالية التحول الأيديولوجي : نتيجة لما حدث خلال مرحلة التفكك والانهيار ولما أضافته السيطرة الأوربية حدث فراغ أيديولوجي خطير لدى دول العالم الإسلامي كانت محصلته أن الإسلام لم يعد يمثل نظاماً اجتماعياً متكاملاً ، ولم تعد الحضارة الإسلامية إلا

تاريخاً والثقافة الإسلامية جملة علوم الدين ، وباتت معظم الدول الإسلامية في حالة بحث دائم عن أيديولوجية تتوخاها كنظام اجتماعي بعد حصلت على استقلالها عن السيطرة الأوربية ، وكان أن انقسم العالم إلى توجهين أيديولوجيين متصارعين منذ منتصف خمسينيات القرن العشرين ، وكان لكل توجه نصيب مفروض من دول العالم الإسلامي ، وأصبح لزاماً على كل دولة أن تكيف ظروفها وترتب شئونها مع التوجه الذي اختارته ، ولم يكن اختيار التوجه إلا بناءً على معايير وحيثيات تفرضها التطورات التاريخية خلال مرحلة السيطرة الأوربية .

واستلزم التوجه الأيديولوجي تغيير كافة شئون الحياة من سياسية واقتصادية وفكرية وثقافية .. إلخ ، وكان التعليم هو أحد أهم الشئون المفروض تغييرها ، ومعلوم مدى ارتباط التعليم للحياة الفكرية والثقافية أولاً ثم بالأوضاع السياسية والاقتصادية والحضارية ثانياً ، وما أصعب التغيير وما أشق التحول في هذه الظروف الحاسمة ، فالتعليم لابد أن ينطلق من مرجعيات بذاتها فأين تلك المرجعيات وماذا عن مصدرها ، لقد باتت الأيديولوجيات التي تم استيرادها هي المرجعيات فهل كانت صالحة لظروف المجتمعات الإسلامية لتحتكم إلى الزمن والأيام ! .

– إشكالية التحول في الهدف والغاية : الإشكالية التالية ارتبطت بضرورة التحول في هدف التعليم وغايته ، فلقد كان التعليم إبان فترة السيطرة الأوربية يخدم أهداف الدول المسيطرة والتي تمثلت بالأساس في نشر الثقافة الأوربية وترسيخها في المجتمعات الإسلامية ، وبعد الاستقلال تغير الهدف وتحول إلى بناء المجتمع الجديد وترسيخ الأيديولوجية التي تبناها بواسطة نظامها السياسي ، والتعليم وفق غايته الجديدة يتطلب مواصفات خاصة .

- إشكالية التحول في الوسيلة والآلية : وهذه الإشكالية نابعة ومرتبطة بالإشكاليتين الأولى والثانية ، وهي ترتبط أيضاً بالتحول في الوسيلة والآلية ، فوسائل التعليم وآلياته كانت جميعها مستوردة من أوربا ، أما بعد الاستقلال فينبغي البحث عن وسائل وآليات نابعة من داخل المجتمعات الإسلامية ، ولم ولن يقدر للدول الإسلامية صياغة وسائل وآليات للتعليم نابعة من ذاتها ، لأنها لا تملك الأسس العلمية والأصول التقنية التي تمكنها من ذلك ، وسبب هذا الإخفاق هو التخلف والجهل اللذان حددنا أهم عناصرهما وأول خصائصهما في التبعية وعدم المقدرة على امتلاك النهج الخاص .

❖ وطنية التعليم :

تأكدت وطنية أو محلية التعليم بعد حصول الدول الإسلامية على استقلالها عن السيطرة الأوربية ، وأصبح التعليم شأناً خاصاً بكل دولة ، ولم تعد ثمة قواسم مشتركة بين مناهج التعليم أو أدواته ووسائله أو أهدافه وغاياته أو مرجعياته ومنطلقاته في الدول الإسلامية وقد بدت وطنية التعليم جلية في أمور بعينها ولم تكن كذلك في أمور أخرى ، فوطنية التعليم كانت أكثر بروزاً في الارتباط العضوي بين التعليم والأيديولوجية التي يتبناها النظام السياسي في الدولة الإسلامية ، وكذلك برزت في أهداف وغايات التعليم التي ارتبطت بأهداف وغايات المجتمع وربما بأهداف وغايات النظام السياسي الذي اتسعت الفجوة بينه وبين المجتمع في كثير من الأحيان في العديد من الدول الإسلامية وأيضاً اتضحت وطنية التعليم في المرجعيات والمنطلقات التي ينطلق منها حيث حددت كل دولة أو نظام سياسي في الدول الإسلامية لنفسها المرجعيات والمنطلقات التي ترى فيها ما يحقق الهوية أو التوجه الذي ترغب في الانتماء إليه أو تبنيه ، إلا أن وطنية النظم التعليمية لم تبد فيما يتعلق بالأدوات والوسائل لأن الأخيرة في كل الأحوال كانت مستوردة من أوربا ولم تكن نابعة من بيئة المجتمعات الإسلامية ، ولكن ظلت سمة التفاوت النسبي في تقدم تلك

الوسائل والأدوات من الأمور التي عكست إلى حد ما وطنية أو محلية التعليم وأنظمته في العالم الإسلامي .

وبالإضافة إلي وطنية أو محلية النظم التعليمية في العالم الإسلامي في فترة ما بعد الاستقلال عن السيطرة الأوربية ، كان ثمة ما يعرف بقومية النظم التعليمية ، ويقصد بالقومية في هذا السياق أن تنعكس الانتماءات القومية التي تجمع بين العناصر والأعراق داخل العالم الإسلامي على النظم التعليمية داخل الدول التي تنتمي إلى قومية واحدة ، وكانت قومية التعليم مبرزة في العلوم التي تتناول الروابط القومية والتراث القومي والطابع القومي وخصائصه عموماً ، بالإضافة إلي الموروثات الحضارية والثقافية ، وقد كان لكل من وطنية التعليم وقوميته دورهما الذي لا ينكر فيما يتعلق بتوسيع الهوة بين النظم التعليمية على المستويين القومي والوطني في العالم الإسلامي ، وطمست في ذات الوقت ما يمكن أن يطلق عليه الهوية الإسلامية للنظم التعليمية ، والسؤال الآن : هل كانت هذه الإشكاليات التي يمكن بلورتها في : وطنية التعليم وقوميته ، وفي طمس الهوية الإسلامية ، ناتجة عن السيطرة الأوربية على الدول الإسلامية ، أم أنها كانت بمثابة إفرازات لتداعيات داخل العالم الإسلامي ؟ إن التحليل الدقيق والمتابعة التاريخية المتأنية التي قمنا بهما من خلال هذا المؤلف تفضيان بنا إلي خلاصة مؤداها : أن تلك الإشكاليات قد برزت منذ بداية فترة التفكك والانهيار التي أعقبت تدمير الخلافة الإسلامية على أيدي المغول في بغداد ، وقد رسختها السيطرة الأوربية وحولتها إلى مسلمات وقناعات رضي بها المسلمون ، ولم تعد موضع مراجعة أو إعادة نظر !! .

إزاء ما تقدم كانت الهوية الإسلامية للنظم التعليمية في العلم الإسلامي مثار جدل عنيف بين أطراف عديدة : بين الطبقات والشرائح والفئات التي تنتمي إلي ثقافات مختلفة في العالم الإسلامي ، وبين النظم السياسية وبعضها ، وبينها وبين الطبقات والشرائح والفئات

التي لا تزال تتشبث بالهوية الإسلامية في الثقافة والحضارة والتعليم ، وقد احتدم هذا الجدل ووصل إلى حد الصراع العضوي ! وبالرغم من ذلك فالهوية الإسلامية فرضت نفسها على كافة الفرقاء من خلال علوم الإسلام التي حافظت على موقعها ضمن خارطة النظم التعليمية ولم تزحزحها علمانية النظم التعليمية في النظم السياسية الاشتراكية ، ولم تزلزلها عداوة تلك النظم التي جاءت بشكل سافر وحاد ، ووصلت إلى حد العنف وإراقة الدماء .

❖ التوجهات الأيديولوجية :

ألمحنا إلى أن التوجهات الأيديولوجية التي اعتنقتها النظم السياسية الإسلامية بعد الاستقلال عن السيطرة الأوربية قد انتقلت إلى العلم والتعليم ، حيث أصبحت كل دولة تكيف نظامها التعليمي وفق التوجه الأيديولوجي الذي يتبناه نظامها السياسي ، وبالذات في الوسائل والأدوات ، وكذلك في العديد من العلوم الاجتماعية النظرية ، والتوجه الأيديولوجي عندما انتاب نظم التعليم والعلم فرض على الدول الإسلامية أن تتبع النظم والتنظيمات التي تأخذ بها الدول صاحبة التوجه ، وتستورد منها الأدوات والوسائل ، وترسل إليها البعثات التعليمية ، وكان ذلك مدعاة لأن تتأثر بثقافتها وأفكارها .

ولعل أيديولوجية التعليم والعلم كان مثلها مثل وطنية وقومية التعليم والعلم ، ساهمت في طمس الهوية الإسلامية لنظم التعليم في الدول الإسلامية ، بل أنها كانت أكثر شراسة وحدة في عداوتها للهوية الإسلامية ، وربما اكتسبت تلك الشراسة الحادة من النظم السياسية التي لم تنظر بارتياح إلى الحضارة والثقافة الإسلامية والحركة الإسلامية عموماً .

لقد كانت التوجهات الأيديولوجية التي تبنتها النظم السياسية في الدول الإسلامية بعد استقلالها عن السيطرة الأوربية وبالاً على الثقافة الإسلامية ، وكذا على الثقافات الإقليمية

والمحلية ، والمطلع على حقيقة الأوضاع وواقع التطورات في تلك الآونة يكتشف أن التحرر من سيطرة الثقافة الأوربية لم يكن إلا للوقوع في حبائل التوجه الأيديولوجي بمفرداته الفكرية والمعتقدية والقيمية ، واستبدلت تلك النظم السياسية تبعيتها لثقافة الأوربية بتبعيتها لثقافة المعتقد أو الأيديولوجية ، وتدخلت ثقافة المعتقد أو ثقافة التوجه الأيديولوجي في كافة شئون الحياة ، وشكلت نظم التعليم ، وتدخلت فيها بشكل لم يسبق له مثيل حتى في زمن الثقافة الأوربية ، فالأخيرة لم يكن مرغوب فيها من معظم قطاعات المجتمع الإسلامي ، أما التوجه الأيديولوجي فقد اعتنقته النظم السياسية وفرضته على المجتمعات وروجت له بكافة السبل .

لقد كانت ثقافة التوجه الأيديولوجي في تعاملها مع المجتمعات الإسلامية بثقافاتها الإسلامية والمحلية تتبع نفس منهج الثقافة الأوربية القائم على الحط من قدر الآخر والتهوين من شأنه ، فثقافة التوجه الأيديولوجي كانت تنظر إلى من استعانوا بها نظرة الفقير الذي لا يملك ذاتاً حضارية ولا منطقاً ثقافياً ، وتمتعت ثقافة التوجه الأيديولوجي بسيادة وسطوه لا مثيل لهما ، ومرد ذلك إلى تبني النظم السياسية لها والولاء الذي أبدته لها قطاعات عريضة من المجتمعات الإسلامية على أنها المنقذ من الثقافة الأوربية ، ووصل الأمر إلى حد أن المجتمعات الإسلامية كادت أن تعتبر ثقافة التوجه الأيديولوجي بديلاً للثقافة الإسلامية ومعبراً عن ثقافة تلك المجتمعات في شكلها الجديد .

لقد أطلق العنان للتوجه الأيديولوجي لكي يمد تأثيراته إلى كافة شئون الحياة ، وقد نال التعليم حظاً وفيراً من تلك التأثيرات ، شمل المناهج والأدوات والوسائل ، وتطرق إلى الاستراتيجيات والأهداف والغايات ، وأمسى نظام التعليم نظاماً موجهاً أيديولوجياً .

❖ التعليم وسياسات وخطط الإنماء :

في كل دول العالم يرتبط التعليم بالإنماء ارتباطاً عضوياً ، فسياسات وخطط الإنماء ترتكز جميعها على مخرجات التعليم ، حيث أن العنصر البشري هو الفاعل الأساسي في صياغة السياسات وتنفيذ خطط الإنماء ، ومن ثم كان اهتمام الدول الإسلامية بعد استقلالها بالتعليم تعويلاً على دوره في سياسات وخطط الإنماء التي تعتبرها النظم السياسية في تلك الدول أهم وأول أهدافها ، وربما سبب وجودها ومبرر استمرارها ، فإن نجحت تلك السياسات وأفلحت الخطط في تحقيق التقدم والرقي ، فقد نالت النظم السياسية شهادة تقدير لدورها ولأهمية وجودها .

لقد نال التعليم جل اهتمام النظم السياسية في الدول الإسلامية ، وخصصت له مقدرات مادية هائلة ، ووضعت له خططاً طموحة ربما فاقت امكاناتها وتجاوزت متطلباتها ، وعلى أثر ذلك برزت مشاكل عديدة مثل : ضعف القاعدة التقنية بالدول الإسلامية وتخلف الامكانات والوسائل والمناهج ، وعدم التواؤم بين مخرجات التعليم من العنصر البشري وبين متطلبات خطط وبرامج الإنماء ، والاهتمام بالكم على حساب الكيف ، وشرعت تلك المشاكل تجعل من نظم التعليم في الدول الإسلامية عبئاً ثقيلاً ، وتحتاج هي ذاتها إلى التقويم والإصلاح .

وما من شك في أن سياسات وخطط الإنماء هي التي وضعت نظم التعليم في الدول الإسلامية على محك تجربة قاسية أبرزت ما في تلك النظم من مثالب وأخطاء ، وأوضحت سمات التخلف وعدم الدقة وافتقاد الموضوعية التي اتسمت بها تلك النظم .

وكان من شأن الارتباط العضوي بين التعليم وبين سياسات وخطط الإنماء أن يبرز تركيز النظم السياسية على العلوم الدنيوية ، وإهمالها المتعمد لعلوم الإسلام الذي باتت لا

تستشعره إلا في المناسبات ، وكان مبررها المعلن هو أهمية تلك العلوم للإنماء ، أما واقع حالها فيعلن عداءها للإسلام ولعلومه التي لا تساعد على التقدم بل ربما تعوقه حسب وجهة نظر تلك النظم ! .

❖ افتقاد المرجعيات الثقافية والحضارية :

لقد أصبحت النظم التعليمية في الدول الإسلامية بعد الاستقلال عن السيطرة الأوربية نظماً مجردة من المرجعيات الثقافية والحضارية ، فانتماؤها للثقافة وللحضارة الإسلامية لم يعد له وجود ، وحتى انتماؤها للموروثات الثقافة والحضارية المحلية بات مشكوكاً فيه ، وذلك لأنها تنصلت من هذه وتلك واعتبرتها وصمة تخلف ، وشرعت تبحث عن التقدم لدى الآخر الذي لم تتحلل من سيطرته إلا بالأمس القريب .

لقد أصبحت المرجعيات الثقافة والحضارية للنظم التعليمية في الدول الإسلامية هي نفسها ثقافة وحضارة التوجه الأيديولوجي الذي تبنته النظم السياسية في تلك الدول ، ولم تدرك أن ثقافة وحضارة التوجهين الأيديولوجيين المتصارعين الفردي والشمولي هي واحدة ، فكلاهما ينتمي إلى الثقافة والحضارة الغربية ، إلا أن ما حدث هو أن الثقافة الغربية أساس المنهج الفردي قد ولدت نقيضها وذلك وفق منطق أو نظرية الصراع أو التناقض داخل الثقافة الواحدة ، كما أن كليهما يهدف إلى تحقيق غاية السيطرة والهيمنة على الآخر الذي هو غير الغربي ، ولكن الخلاف بينهما في الأداة والوسيلة فقط .

وهنا يتحقق المتابع من أن مرجعيات النظم التعليمية في الدول الإسلامية في زمن السيطرة الأوربية هي نفسها مرجعياتها في زمن الاستقلال السياسي الشكلي عن تلك السيطرة ، ففي الفترة الأولي كانت متمثلة صراحة في الثقافة والحضارة الأوربية ، وفي الفترة الثانية

كانت مستكنة ضمناً في التوجهين الأيديولوجيين الفردي والشمولي اللذين ينحدران صراحة من ثقافة وحضارة أوربا .

إن ما تقدم من وضعية افتقار النظم التعليمية بالدول الإسلامية للمرجعيات الثقافية والحضارية انعكس على علاقة تلك النظم بالبيئة التي تتعاطى معها وتوجد فيها ، وهي المجتمعات الإسلامية فلم يكن لتلك النظم جذور غائرة في تلك البيئة ، حيث أنها لم تنبعث منها ، ولم تمثلها أو تعكسها ، ولم تتفاعل معها ، ولم تتمكن في النهاية من تحقيق أهدافها ومقاصدها ، وكان ذلك سبباً جوهرياً في إخفاق معظم إن لم يكن كل النظم التعليمية في كافة الدول الإسلامية .

كذلك جاءت النظم التعليمية في الدول الإسلامية بعد الاستقلال نظماً مجهولة الهوية ، فهي لم تجرؤ على إعلان هويتها الإسلامية لخلوها من المرجعيات الإسلامية الثقافية والحضارية ، كما أنها كانت تستحي من أن تعلن أن هويتها تعود إلى التوجه الأيديولوجي الذي تبنته النظم السياسية ، وظلت هكذا مسخاً لا مضمون له ولا مدلول ، وإزاء هذه الوضعية لم تجد أمامها من بد إلا التشبث بفكرة لا مبرر لها ولا قبول وهي دعوى الوطنية التي كانت بمثابة الملاذ الأخير .

❖ تخلف التعليم في العالم الإسلامي :

كل ما قدمنا أفضى إلى نتيجة نهائية مفادها تخلف التعليم في العالم الإسلامي – وقد سبق لنا الحديث – عن التخلف بخصوص العلم والتعلم ، وهو ذاته ما يسري على التعليم ، أما أشكال ومظاهر ذلك التخلف في مجال التعليم فهي تتمثل في الآتي :

- تخلف المناهج : يبدو تخلف المناهج المتبعة في التعليم لأنها لا تنبع من البيئة الخاصة بالمجتمعات الإسلامية ولكنها تستجلب دوماً من الخارج وليس لأبناء الشعوب الإسلامية أية بصمات أو تأثيرات فيها .

- تخلف الأدوات والوسائل : بالرغم من الوفرة المادية التي توجد لدى بعض الدول الإسلامية إلا أن وسائل التعليم وأدواته تعاني في المعتاد من التخلف وعدم مواكبتها لأحدث التقنيات التي تظهر في أوربا المصدر الأساسي لتلك التقنيات ، ويرجع السبب الأول والأخير في تخلف الأدوات والوسائل التعليمية إلى عدم توفر قاعدة تقنية خاصة بالعالم الإسلامي ، وسوف نناقش هذه المسألة تفصيلاً في الفصل التالي .

- الاهتمام بالكم على حساب الكيف : تحت وطأة الحماس الذي انتاب النظم السياسية في العالم الإسلامي بعد الاستقلال من أجل الإنماء والإحداث التحقت بمجال العلوم الدنيوية المختلفة أعداد هائلة من أبناء الشعوب الإسلامية ، ولم تتمكن المناهج المتخلفة ولا الأدوات والوسائل المتهالكة من استيعاب هذه الأعداد ، وكانت النتيجة حدوث عدم توازن بين الكم الهائل والكيف المتواضع ، مما أدى إلى أن تصبح مخرجات التعليم أداة إعاقة لسياسات وخطط الإنماء بدلاً من أن تكون وسيلة إنجاز وتحقيق للطموحات والأهداف .

❖ الأدوات والوسائل :

في كافة أنحاء العالم الإسلامي تم تقسيم التعليم إلى قسمين : تعليم دنيوي وتعليم ديني ، ووجدت بعض الجامعات التي جمعت بين النوعين من التعليم على غرار جامعة الأزهر في مصر ، ويمكننا تناول هذين النوعين من التعليم بإيجاز في ما يلي :

- التعليم الدنيوي : تعددت المدارس والجامعات التي أنشأتها النظم السياسية في الدول الإسلامية وعرفت بالتعليم النظامي أو الحكومي أو الرسمي ، ووجد إلى جانب ذلك في الكثير من الدول ما عرف بالتعليم الأهلي ، حيث تنشأ المدارس والجامعات بجهود أهلية داخلية أو خارجية ولكن تحت إشراف الدولة ، وقد ثار جدل واسع حول مدى أهمية وجدية الخدمات التي يقدمها التعليم الأهلي ، وحول ما إذا كان يعد تدخلاً ثقافياً من الغير في شئون الحياة الفكرية والثقافية في الدول الإسلامية ، إلا أنه يمكن القول بأن ثمة مؤسسات أهلية تعليمية وعلمية تقدم من الخدمات التعليمية والعلمية ما يفوق الخدمات التي تقدمها المؤسسات التعليمية والعلمية الرسمية من حيث الجودة والكفاءة ، ونوضح ذلك من خلال الاتي :

○ المدارس : تعد المدارس المؤسسة التعليمية الأولي التي تستقبل الطفل المسلم من سن السادسة في المعتاد ، ويتلقى في هذه المدارس مبادئ وأساسيات العلوم الدنيوية والقليل النادر من أصول التربية الإسلامية ، وتستمر الدراسة في هذه المدارس مدة تتراوح ما بين ست وتسع سنوات ، وتعرف هذه المرحلة عادة بمرحلة التعليم الأساسي التي أصبحت إلزامية إجبارية في معظم الدول الإسلامية .

وبعد أن يجتاز الصبي هذه المرحلة من التعليم الأساسي ينتقل إلى مرحلة أخرى من التعليم أكثر تقدماً ، حيث يدرس مجموعة من العلوم المتخصصة الأكثر تطوراً وعمقاً وكثافة ، وهذه المرحلة تتفرع إلى اتجاهين :

□ الاتجاه الأول : اتجاه يغلب عليه طابع التعليم التقني الحرفي المهني ، حيث يتم إعداد الشاب مهنياً وحرفياً لشغل المهن والحرف التي تتطلبها تفاعلات الحياة الاجتماعية ، وتتراوح الدراسة في هذا الاتجاه ما بين ثلاث وخمس سنوات ، وتعمد بعض النظم

التعليمية إلى استيعاب الخريجين في هذا الاتجاه في جامعات تقنية لصقل العلوم والخبرات التي اكتسبوها في التعليم الثانوي .

□ الاتجاه الثاني : اتجاه يعد الشاب للتعليم الجامعي ، حيث يدرس بعمق وكثافة وتخصص أي فرع أو حقل من فروع العلوم الدنيوية العملية التطبيقية أو النظرية الاجتماعية .

○ الجامعات : يعرف التعليم الجامعي في كافة أنحاء العالم الإسلامي تقريباً بالتعليم العالي ، وتنتشر الجامعات الحديثة النشأة في كافة الأنحاء ، وقد يكون في كل مدينة أو عاصمة إقليمية جامعة ، وتعاني هذه الجامعات المستحدثة من قلة الإمكانيات المادية وندرة الأساتذة ، وتوجد في معظم هذه الجامعات كليات ومعاهد عليا لكافة فروع العلم والمعرفة الطبيعية التطبيقية والإنسانية النظرية ، وتتخلل هذه الجامعات كليات ومعاهد وأقسام تخصصت في علوم الإسلام .

ويعاني التعليم الجامعي في العالم الإسلامي عموماً من مشاكل عديدة تتمثل في : شحة الإمكانيات المادية التي تتطلبها عمليات البحث العلمي ، وعدم وجود قاعدة تقنية خاصة بالتراكم المعرفي تعد بمثابة الرصيد المتنامي للمكتسبات العلمية والمعرفية في العالم الإسلامي ، وتخلف وسائل وأدوات البحث العلمي التطبيقي الميداني ، وعدم المقدرة على الاستفادة من تطبيقات البحث العلمي ، مما افقد البحوث العلمية قيمتها حيث تظل حبيسة التنظير .

– التعليم الديني : إلى جانب ما قدمنا من أشكال ونماذج التعليم الدنيوي وجد التعليم الديني في كافة الدول الإسلامية ، والتعليم الديني يبدأ من طور الطفولة مثل التعليم الدنيوي ، ويمكن الإشارة إلى تدرجية التعليم الديني السائدة في معظم دول العالم الإسلامي فيما يلي :

○ تهميش الكتاب : بالرغم من تهميش دور الكتاب بشكل قد يكون متعمداً من النظم السياسية ، وكاستجابة لمتطلبات العصر من وسائل الاتصال والتقنية الحديثة إلا أن الكتاب ظل هو الأداة الفعلية الأساسية التي تعد الطفل المسلم فكرياً ونفسياً للانخراط في سلك العلم الديني ، وترتفع آراء ومناشدات علماء المسلمين في الوقت الراهن التي تنادي بإعادة تفعيل الكتاب كمؤسسة اجتماعية تعليمية ، والكتاب هو الشكل المتعارف عليه في معظم الدول الإسلامية لهذا النوع الأساسي والبدائي من التعليم الديني ، ويعرف في شمال أفريقيا والمغرب العربي بالزاوية ، وقد أثر تقدم الحياة ورقيها سلبياً على الكتاب ودوره التعليمي إلى درجة يمكن معها القول بأن هذه المؤسسة التعليمية الاجتماعية هي في سبيلها إلى الانقراض .

○ المدرسة أو المعهد الديني : إذا اختار ذوو الطفل المسلم له التعليم الديني فعليه أن يلتحق من سن السادسة بالمدرسة الدينية أو المعهد الديني ، وتبدأ المرحلة الأولي من هذه السن المبكرة وتستمر لمدة تسع سنوات ، يدرس خلالها الطفل كافة علوم الإسلام الشرعية من شريعة وتوحيد وفقه وعلوم القرآن وعلوم الحديث وعلوم اللغة وغيرها ، ثم ينتقل مباشرة إلى المرحلة التالية وهي مرحلة الإعداد للتعليم الجامعي ، وهذه المرحلة لا تقل مدة الدراسة فيها عن خمس سنوات ، وخلال هاتين المرحلتين اللتين لا تقلان عن اثني عشر عاماً يتلقى خلالها طالب العلم علوم الإسلام بشكل متدرج من حيث الكثافة والعمق والتفصيل .

إلا أنه في بعض الأحوال قد يوجد التعليم المختلط حيث يدرس الطالب إلى جانب العلوم الدينية العلوم الدنيوية التي يمكن أن يتخصص فيها في التعليم الجامعي ، ويتخرج فيها ، وتكون دراسة العلوم الدينية لاكتساب المعرفة فقط ، ونري ذلك في مصر وبعض الدول الإسلامية الأخرى .

○ الجامعات : الجامعات التي تتخصص في العلوم الدينية تنقسم إلى قسمين على النحو التالي :

□ القسم الأول : هو الجامعات التي لا تدرس إلا العلوم الإسلامية ، وتحاول هذه الجامعات النهوض بما تقدمه من خدمات تعليمية ، ولكن تلك المحاولة تتوقف على مدى نجاح التعاون والتنسيق بين النظم السياسية وعلماء المسلمين الذين يتولون أمر التعليم الديني ويقومون مسيرته .

□ القسم الثاني : وهو الجامعات التي تدرس العلوم الإسلامية إلى جانب العلوم الدنيوية ، كما يوجد بها كليات ومعاهد تخصصت في علوم الإسلام فحسب .

وتستقبل هذه الجامعات بنوعيها الطلاب من المدارس أو المعاهد الدينية ، وتتراوح فترة الدراسة الجامعية بين خمس وست سنوات .

وتتجه معظم مخرجات التعليم الديني في العالم الإسلامي إلى التعليم الديني في المراحل دون الجامعية ، أو إلى أمور الدعوة والوعظ والإرشاد الديني وإقامة الشعائر في دور العبادة ، ولا تجد الدول الإسلامية صعوبة كبيرة في تمويل التعليم الديني لاعتماده الأساسي على الأوقاف الإسلامية وما تدره من مدخولات ، ومن التبرعات المتبادلة بين الدول الإسلامية ، وتعد الجامعات الإسلامية مراكز راسخة لبث الصحوة الدينية في كافة أنحاء العالم الإسلامي ، وهي التي تتحمل التصدي لكافة أنواع الغزو والاختراق المعتقدي والفكري والثقافي التي تعمد إلى اجتياح العالم الإسلامي وتدمير ممتلكاته وموروثاته الثقافية والحضارية ، إلا أن الجامعات الإسلامية تحتاج إلى الكثير من الدعم والتشجيع وتطوير أساليب البحث العلمي وترقية جهود الاجتهاد لاحتواء المتغيرات واستيعاب المستجدات وتقديم الرؤية الإسلامية الأصيلة لكافة القضايا والإشكاليات المعاصرة .

المبحث الخامس

العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في الوقت الراهن

هل أحرز المسلمون تقدماً أو سجلوا عطاءً في مجال العلوم خلال الفترة محل الدراسة التي تبدأ من أواخر القرن الثامن عشر وحتى أوائل القرن الحادي والعشرين ؟ لقد كان للتداعيات والإشكاليات التي سبق رصدها وتحليلها بخصوص العلم والتعلم والتعليم آثارها البليغة على العلوم الطبيعية أو الدنيوية ، وذلك من خلال الآتي :

أولاً : عوامل إخفاق المسلمين في الإنجاز في مجال العلوم الطبيعية وتطبيقاتها :

لقد سادت مجموعة من الخصائص أو العوامل التي حالت بين أبناء الإسلام وبين العطاء في مجال العلوم الطبيعية ، ويمكن تناول تلك العوامل في الآتي :

❖ **فقدان الاتصال بالتراث الإسلامي :**

لقد انغمس المسلمون في مشاكلهم وتمزقوا فكرياً بين الانبهار بالثقافة والحضارة الأوربية التي جاءتهم غازية عاتية ، وبين الدفاع عن ممتلكاتهم وموروثاتهم الثقافية والحضارية ، وقد ألهاهم هذا وذاك وصرفهم عن الاتصال بتراثهم العلمي ، واستيعاب قيمته والبحث فيه ، وبات المسلمون وكأنهم بلا ماضي أو تاريخ ، وكانت هذه أول مراحل فقدان الذات الحضارية والمنطق الثقافي ، وشرعوا يلهثون وراء ما لدى الآخر بدعوى أنه هو الذي سيدفعهم إلى الأمام في ركب التقدم والرقي ! .

❖ **فقدان المقدرة على التواصل مع التراث :**

تاه المسلمون عن تراثهم ، وضلوا عنه السبيل ، ولم يتمكنوا من التواصل معه ، فالأمر قد أصبح صعباً ومعقداً ، فالتواصل يتطلب من المسلمين :

- البحث عن تراثهم وفهمه واستيعابه .

- ثم يستلزم عطاءً مضاعفاً جباراً لسد الفجوة الزمنية بين ذلك التراث والحاضر المعاش ، فمن أين لهم بهذين المطلبين ؟ ! .

ولعل التواصل وفقدان المقدرة على إحرازه هو أهم الإشكاليات التي تصادف علاقة المسلمين بثقافتهم وحضارتهم ، وإن كانت هذه الإشكالية تبدو جلية في كافة مقومات الحضارة الإسلامية ، فهي أكثر جلاءً فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، وذلك لأن العلوم الطبيعية لا ترتقي وتتقدم إلا من خلال تراكم متواصل من الإنجازات العلمية والمعرفية يمتد في حلقات تسلم كل منها إلى الأخرى ، وفقدان أية حلقة من هذه الحلقات يعني الانقطاع والاختلال ، وأن ذلك يستوجب البدء من جديد أو الاعتماد على الرصيد المتراكم لدى الآخر ، والبدء من جديد هو أمر في عداد المستحيل ، أما الاعتماد على الرصيد المتراكم لدى الآخر فهو البديل المقبول ، ولكنه يتطلب جهداً جباراً للانطلاق والاعتماد على الإنجاز الذاتي الذي يعول عليه في تقديم الجديد باستمرار ، فالإنجاز في مجال العلوم حركة لا تهدأ من الابتكارات والاكتشافات والاختراعات والتطوير ، فعلى المسلمين عندما يفكروا في التواصل مع تراثهم أن يخوضوا غمار هذه الإشكاليات .

❖ التبعية لأوربا في نقل كافة العلوم الطبيعية وتطبيقاتها :

كذلك كانت التبعية لأوربا في نقل كافة العلوم الطبيعية وتطبيقاتها من أهم العوامل التي حالت دون تمكين المسلمين من العطاء في مجالات العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، فالتبعية قد أفقدت المسلمين الشخصية المستقلة ، كما أفقدتهم كذلك المقدرة على العطاء وبذل الجهد ، وحبذت لديهم الاكتفاء بما يملكه الآخر والاعتماد على ما يحرزه في مجال العلم والمعرفة .

وقد اعتاد المسلمون التبعية لأوربا والاعتماد على عطاء علمائها وإنجازاتهم منذ أن اقتحم الأوربيون العالم الإسلامي وشرعوا يعبثون بمقدراته الثقافية والحضارية ، ومن هنا كف المسلمون أيديهم عن العطاء والإنجاز العلمي ، واكتفوا بما يسردهم من أوربا ، واستساغوا ذلك واستمرأوه عندما أيقنوا بعجزهم واقتنعوا وانبهروا بقدرات ومكنات الآخر ، وأخذوا ينقلون العلوم والمعارف عن أوربا ، واعتادوا الكسل وألفوا التهافت والتطفل على جهود الغير وإنجاز الآخر ، ولم يعد أمامهم من طريق غير طريق التبعية ونقل كافة العلوم وتطبيقاتها ، وكان من شأن ما تقدم أن يعمق تخلف المسلمين في تلك العلوم ويوسع الفجوة بينهم وبين الأوربيين في تطبيقاتها .

❖ **افتقاد القاعدة التقنية على مستوى العالم الإسلامي :**

نقصد بالقاعدة التقنية تأسيس وعاء للتراكم العلمي والمعرفي على مستوى العالم الإسلامي يجمع بين العلوم وتطبيقاتها ، ويدفع بها دوماً في سبيل التقدم والرقي من خلال التطوير المستمر والإنجاز الدائم المعتمد على القدرات الذاتية والمكنات الإبداعية ، فالعلوم هي البحوث والتجارب ، والتطبيقات هي وضع تلك التجارب على أرض الواقع ، فالعالم الإسلامي لم ينشئ هذه القاعدة لأسباب عديدة : منها التخلف العلمي ، ومنها كذلك السيطرة الأوربية ، ومنها أيضاً قلة الامكانات المادية ، ومنها أخيراً عدم اهتمام النظم السياسية بالعلوم وتطبيقاتها .

ثانياً : مراحل تطور العلوم الطبيعية وتطبيقاتها خلال الفترة محل الدراسة :

وتأسيساً على ما تقدم يمكن الحديث عن وضعية العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في العالم الإسلامي من خلال مراحل ثلاثة :

❖ المرحلة الأولي : مرحلة ما قبل السيطرة الأوربية :

خلال هذه المرحلة كان اعتماد المسلمين في العلوم الطبيعية على التراث الذي وصلهم كنتاج من فترة الازدهار العلمي للحضارة الإسلامية ، فانكب المسلمون على كتب التراث في الطب والعقاقير والفلك والرياضيات والطبيعة والكيمياء والجغرافيا والتاريخ والتاريخ الطبيعي ، وخلال هذه المرحلة لم يفقد المسلمون ذاتهم بالرغم من إحجامهم عن العطاء والإسهام والإبداع ، والتفتوا إلى تراثهم ، وعكفوا على البحث فيه واسترجاعه .

❖ المرحلة الثانية : مرحلة السيطرة الأوربية :

وخلال هذه المرحلة شرع المسلمون يتجهون نحو أوربا حيث بدأت ترسل حملاتها إليهم وقللوا من الاعتماد على التراث والعناية به والاستفادة منه ، وبدأت حركة الابتعاث إلى أوربا للدراسة في مصر وتركيا ، ونشطت هذه الحركة بشكل لم يكن متوقعاً ، وعاد المسلمون من أوربا بالعلوم في كافة التخصصات وهم في حالة من الانبهار والإعجاب بالحضارة والثقافة الأوربية ، وبدأت العلوم الطبيعية الحديثة تنتقل إلى العالم الإسلامي من أوربا ، وأصبح المسلمون ناقلين من الطراز الأول .

❖ المرحلة الثالثة : مرحلة الاستقلال عن السيطرة الأوربية :

بالرغم من الاستقلال السياسي الشكلي عن الدول الأوربية إلا أن العالم الإسلامي استمر في نقل العلوم الطبيعية وتطبيقاتها من دول التوجه الأيديولوجي وهي دول أوربية ، وتم ذلك عن طريق الابتعاث والترجمة إلى العربية واستجلاب الأكاديميين والخبراء من دول أوربا وأمريكا على اختلاف توجهاتها الأيديولوجية .

إن ما يمكن استخلاصه من هذا التحليل هو أن العالم الإسلامي كان خلال الفترات الثلاث موضع التحليل في هذا المبحث ناقلاً للتكنولوجيا وليس مبتكراً أو مؤصلاً لها ، فقبل

السيطرة الأوربية كان ناقلاً من التراث ، وخلال فترتي السيطرة الأوربية والاستقلال عنها كان ناقلاً عن أوربا ، فقد نقل عن دول السيطرة الأوربية في الفترة الأولى ، ثم عن دول التوجه الأيديولوجي في الفترة الثانية ، وعليه فهو تابع في كل الأحوال فاقد لذاته مفتقد لهويته .